سلوى بكر

# فِيلَةٌ سَوْدَاء بِأُذُنٍ بَيْضَاء

الكاتبة الحاصلة على جائزة الدولة التقديرية لعام 2021

رواية

دار دَوِّن

فِيلَةٌ سوداءُ

بأحذيةٍ بيضاءَ

سلوى بكر: فِيلَة سوداءُ بأحذيةٍ بيضاءَ، روايــة
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٢
رقم الإيداع: ٢٦٥٨٥ /٢٠٢١ - الترقيم الدولي: 4 - 285 - 806 - 977 - 978
جَميــع حُـقــوق الطبْــع والنَّشر محـْــفوظة للناشِر
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.
© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

سـلـوى بـكـــر

# فِيلَةٌ سوداءُ
# بأحذيةٍ بيضاءَ

روايـــــة

دَوِّنْ
للنَشرْ والتَوزيعْ

بدا الأمر وكأنَّ هناك حمى قد سرت وانتشرت بحيِّنا الهادئ الصغير فجأة، وذلك بعد ذيوع الخبر وتناقُله، فقد ظلت الجموع البشرية تتدفق إليه وتندفع من المدن القريبة والقرى البعيدة، وحتى من البلدات الصغيرة المعزولة في عمق الصحراء عند أطراف بحر الرمال المميت؛ فبمجرد غروب الشمس وحلول المساء، كانت كل مداخل الطرق المؤدية إلى تلك الكنيسة الصغيرة، والتي قلما تُلحظ، تمتلئ عن آخرها بموجاتٍ من المتدافعين إليها، أملًا في إيجاد موضع قدم، أو الحصول على مكان مناسب، يتيح فرصة تسنح برؤية معجزة الظهور والتجلي.

الكنيسة المتواضعة، ذات القباب الرمادية الثلاث، باتت بين عشية وضحاها في بؤرة الحدث، مثلما صار حالُ الشارع الواقعة فيه، والمسمى على اسم الفارس المملوكي المغدور طومان باي، والذي آثر أن يُعلَّق شنقًا على باب زويلة ولا يخضع لابن عثمان المحتل، حتى لو صار واليًا لمصر.

شارع طومان باي يُعَدُّ في الحقيقة واحدًا من أجمل شوارع حي الزيتون الوديع، والمنشطر جغرافيًّا بخطّ سكة حديد قديم يعود تاريخه لزمنٍ آخر الاحتلالات المبتلية بها البلاد عبر العصور كلها، فعند مبتدئه يقِع قصر الطاهرة الملوكي الفخيم، والمبنيّ زمن الرخص وقت هيمنة الإقطاع الزائل بعد حركة الجيش المباركة كما أطلق عليها سنة ١٩٥٢. وبالشارع الفخيم كمٌّ من السرايات القديمة المحوطة بحدائق مزدهرة بأشجار غريبة نادرة كالسبوت والممبوزيا والبشملة وغيرها من الزراعات التي لم تكن معروفة من قبل، وتشهد على الدور الجهيد لرجال محمد علي باشا بعد أن داروا ولفُّوا بلدان مدار السرطان للعودة بها وزراعتها بمصر، وليتحقق حُلم الباشا وليّ النعم في تحويل البلد إلى إمبراطورية عظمى حتى لو بالحديد والنار.

ظلت عمارة الإيموبيليا الشهيرة، بضخامتها النسبية وطوابقها المرتفعة، هي المعْلَم الأهم لهذا الشارع الممتد، ولحيّ الزيتون كله، وكانت شاهدًا حيًّا على محاولة مصر المبكرة دخول عالم الحداثة. أما مخفر الشرطة فقد ظلَّ بمبناه الحجري الكلاسيكي تلاصقه وحدة إطفاء الحرائق - والمبنيّ منذ زمن الاحتلال الإنجليزي - هو الرمز الأهم لحضور الدولة العميقة بذلك الشارع القديم. الكنيسة ذاتها، بلونها الكابي وطرازها البازيليكي المغاير لنمط الكنائس القبطية الموجودة بالحي، لم تكن تجتذب كثيرًا من المؤمنين، ربما بسبب مظهرها الجاف، الخالي من أي جاذبية

مبهجة؛ فهي بلا رسومات جدارية ملونة لقديسين وأبطال دينيين أسطوريين، ولعل مظهرها الوقور الرصين هذا كان يضفي على الشارع لمسة خصوصية أرستقراطية مميزة.

والحقيقة، أن الخصوصية بشارع طومان باي كانت تتجلى بالفعل من خلال ذلك الطريق الجانبي الصغير المتفرع من الشارع مقابل قسم البوليس، حيث تتناثر على جانبيه مجموعة من الفيلات الأنيقة، وقد وضعت عند بدايته لافتةٌ دُوِّن عليها بخطٍّ جميلٍ : "شارع خصوصي.. ممنوع المرور".

مأمون العفيفي مدرِّب سائقي أتوبيسات النقل العام بالجراج المواجه مبناه لمبنى الكنيسة تمامًا، قال بالحرف الواحد، وباعتباره المصدر الرئيسي الأول لخبر معجزة الظهور والتجلي، وكما أوردت الصحف التي نشرت الخبر:

(كنت ساهرًا بالجراج، وبعد الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف ليلة الثلاثاء الموافق ٢ إبريل سنة ١٩٦٨، سمعت خفير الجراج الواقف بالباب يصيح بصوت عالٍ: نور فوق القبة.. نور فوق القبة، فخرجت مسرعًا إلى الشارع، وشاهدت بعيني سيدة تتحرك فوق القبة، ودققت النظر إليها وظلَّ بصري متعلقًا بها، فأيقنت أنها العذراء، ورأيتها تمشي فوق القبة الملساء، وجسمها شعلة من نور، وكانت تسير في هدوء، فلم أتمالك نفسي من أن أهتف: ﭧﭨ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪﭼ (سورة آل عمران - الآية ٤٢).

صار مدرب سائقي النقل العام، والخفير، وعُمَّال الجراج جميعهم في بؤرة الحدث، وتحت الأضواء بين عشية وضحاها، وتناثرت أقوالهم وأحاديثهم الصحفية على صفحات الجرائد والمجلات، كما اعتمدتهم الكنيسة القبطية في بياناتها الرسمية كشهود عيان، وإثبات للمعجزة، وتجلِّي السيدة العذراء، كما أن الشك في أقوالهم بخصوص ذلك الحدث السماوي الخطير من رابع المستحيلات؛ لأنهم جميعًا من المسلمين، أما نحن سكان عمارة المنشاوي، القائمة على مبعدة ثلاثة شوارع صغيرة لا غير من مكان الكنيسة، فصرنا نموذجًا شائعًا، وتمرينًا مشهورًا بلغة الهندسة، لمعظم سكان الحي، فرغم محدودية مساحته إلا أنه كان يضم صنوفًا شتى من البشر، فهناك فلاحون نازحون من الدلتا، وصعايدة هجروا الجنوب الفقير، إضافة إلى نازحين من بلاد الشام على مدى قرون، كما أن الأرمن استقر بعضهم في هذا الحي بعد أن فروا من مجازر الأتراك في القرن التاسع عشر، وحتى الأتراك أنفسهم استقر عشرات منهم بالحي، سواء أولئك الذين بنوا

سراياتٍ وقصورًا فيه زمن الأسرة العلوية، أو فقراء هضبة الأناضول الذين نزحوا بحثًا عن الرزق في أم الدنيا.

حتى اليونانيون والطليان، استقر بعضهم بالزيتون بعدما وصلوا إلى الضفة المقابلة للمتوسط خلال الحرب الكونية الأولى، وأضافوا لمساتٍ عليه لا بأس بها بعد أن افتتحوا محالًا لتصليح الأحذية وبيع الخردوات والأزرار، أو الدوران في الشوارع لشراء الروبابيكيا، أو الشحاذة بالبيانولا.

كنا - كسُكَّان عمارة المنشاوي - صورة مكررة لبيوت وعمارات أخرى عديدة بالحي اتفقوا على تنظيم زيارات مشاهدة ليلية لتلك المعجزة الفذة التي أنعشت ما هو كامن وعميق في الجينات المصرية منذ آلاف السنين، حيث الولع بالموالد والكرنفالات، وكل تلك الطقوس الاحتفالية الجمعية، فكانت طقوسنا نحن تبدأ بعد أذان المغرب بقليل، عندما يبلغ تقاطر الجموع إلى محيط الكنيسة ما قبل ذروته، فنضمن الحصول على موضع قَدمٍ لا بأس به، يتيح لنا مشاهدة الظهور والتجلي، واقتناص شُرَف معاينة معجزة ربما لن تتكرر بعد ذلك أبدًا.

تمحورت الحياة بعمارتنا طوال أسابيع ممتدة حول ذلك الحدث الجلل، فعمت الجميع بهجة، وتصاعدت بكل البيوت حالة من الفوضى اللذيذة. كثير من التلاميذ والطلاب تجاهلوا واجباتهم المدرسية، وربما تغيبوا عن مدارسهم أصلًا، حرصًا على راحة وقيلولة مناسبة، تعينهم على السهر والصمود ليلًا عند الكنيسة، لأن التجلي ربما يكون قبل انبلاج نور الفجر بقليل، وملابس الخروج المعتادة لم تكن ضرورية للذهاب إلى حيث المعجزة، ففساتين البيت البيكة الخفيفة كانت تكفي النساء، وكذا البناطيل الجبردين والقمصان البوبلين القطن، كانت ما يناسب الرجال، عند الوقوف طويلًا في الزحام، وكان انتعال أحذية زحافي أو صنادل خفيفة أو أحذية قماشية صناعة شركة "باتا" هو الأنسب للجميع. وبالمناسبة، شركة "باتا" مثلها مثل شركة "عمر أفندي للملابس" كانتا المنوطتين بأحذية وملابس المصريين طوال سنوات عديدة، بعد تأميمهما مثل عشرات الشركات الأجنبية الأخرى التي تم تأميمها في بدايات ستينيات القرن العشرين.

الوقوف الطويل الممتد لساعات طويلة أمام الكنيسة دفع البعض لحمل كراسي البحر الخفيفة القماشية المنطبقة معه للجلوس عليها، إضافة إلى ساندوتشات عشاء من الجبن الاستامبولي أو الرومي، مع حلاوة طحينية وخيار قشة وقُلل فخار للشرب، وقد برزت خلافات وخناقات أسرية

عديدة داخل العمارة بسبب ظهور السيدة العذراء، فالرجال كانوا يرغبون في الذهاب منفردين، حتى لا ينشغلوا وتُكبَّل حركتهم برعاية الأطفال وحملهم عندما يغلبهم النعاس ويستغرقون في النوم، أما الأمهات فكنَّ يرغبن في هامش من الانطلاق بعيدًا عن المسؤولية، تحت دعوى أنهن لا يستطعن السيطرة على الصغار وسط فوضى الزحام بسبب حركتهم الدائبة وشقاوتهم، وربما ضاعوا، ولا يستطعن إيجادهم، والمكان عند الكنيسة من المؤكد أنه لن يخلو من أولاد الحرام؛ خاطفي وسارقي الأطفال.

ولَّد الظهورُ العذراويُّ المعجزةُ مشاعرَ غريبةً متناقضةً لدى الجميع، فبدا ذلك الظهور للناس وكأنه نوعٌ من الخلاص، ورغبة في حياة أخرى جديدة مغايرة لتلك الحياة التي يعيشونها، وإلا فما السبب في هذا الاندفاع المحموم تجاه الكنيسة من قِبَل الجميع، الكبار والصغار، المسلمين والمسيحيين، الأغنياء والفقراء، مكتملي الصحة والعافية إلى جانب المرضى والعجزة، والذين على وشك الموت؟!

بدا معظم الناس في حالةٍ من الانفعال والإثارة المغلفة بغلالات من البهجة والفرح الغريب. قالت لي مرة طنط "أتينا" ساكنة الشقة الصغيرة بالدور الأرضي: "نفسي أشوفها وأطلب منها إما ترد لي صحتي وأمشي كما كل الناس، أو تعطيني عيِّل أفرح بيه ويبقى ذكرى في الدنيا بعدي وبعد وليم".

كنت أندهش من مطالب طنط "أتينا" وشروطها؛ فهي تخيِّر السيدة العذراء بين معجزتين، وكنت أحكي ذلك لأمي وأنا أضحك، لكن أمي لم تشاركني حتى الابتسام في ذلك أبدًا، وكانت ترد بجدية: "ربنا كبير.. كل شيء وارد، وأم النور تقدر، وهي صاحبة شفاعة ولها بركات".

طنط "أتينا" المرأة الخمسينية ذات الحاجبين الكثيفين والشعر الفاحم المسترسل على كتفيها دومًا، كانت ابنة لنجار يوناني مصري تخصص في صنع التوابيت للموتى، أما زوجها الأستاذ "وليم" فهو مدرس موسيقى ضرير، يعمل بمدرسة المكفوفين الواقعة على الجانب الآخر من شريط القطار بشارع ترعة الجبل، ورغم عرجها في المشي بسبب حادث في طفولتها لم تحكِ تفاصيله أبدًا، إلا أنها كانت نشيطة وبيتها فُلة، ولهلوبة في شغل البيت، وشاطرة في تطريز الفلترية والبرودرية كما تقول أمي.

الجارة التي قرَّر الجميع - بما فيهم زوجها - تمصير اسمها بعد استبدال حرف الثاء بحرف التاء، والتي ربما كان اسمها هو كل ما تبقى من ذكرى لأبيها، تتعلق بجذوره اليونانية - تلك الجارة

لم تكن الوحيدة الآملة بكرامات المعجزة العذراوية، لا بعمارتنا ولا بالعمارات الأخرى، بل كانت ككل الجموع البشرية التي تقف ساعاتٍ وساعاتٍ تترقب الظهور والتجلي، تطلب المعجزات أيضًا. كانت الآمال الدفينة في الصدور تتطلب الصبر والاحتمال ومقاومة الملل طوال الوقت حتى تظهر السيدة وتحقق آلاف المعجزات التي لعلَّ أبسطها شفاء طنط أتينا من العرج، أو حملها بطفل يؤكد أنها مرت ذات يوم بهذا العالم وعاشت الحياة.

عندما كنت أذهب مع طنط "أتينا" كلَّ مساء كانت هناك دومًا أصوات تعلو، وهمهمات من نساء ورجال، محمَّلةً بأمنيات شتى: ميلاد طفل، عودة زوج بعد طلاق مأسوي، أو تمنِّي رجوع جندي غاب عن أهله منذ الخامس من يونيو١٩٦٧، ولم يظهر اسمُه في قوائم الشهداء، أو الأسرى. كانت الأصوات المتوسلة المتمنية تتخالط دومًا بدق كؤوس التراتيل الكنسية، وأصوات باعة السميذ والترمس واللب والفول السوداني، ضمن غلالات من دخان الشموع الموقدة، والبخور المحترقة، ذات الروائح نفسها المنبعثة من المعابد المصرية القديمة منذ آلاف السنين.

في الأعماق، ولدى الجميع، ظلَّ الخلاص قرين المعجزة، كان ثمة آلاف من الناس وقتها يرغبون بحدوث خلاصٍ ما.. خلاص من أمرٍ غامضٍ يجهلونه تمامًا، وينتشلهم من معاناةٍ وجودية عميقة، كان هؤلاء لا يَطلبُون الشفاء من عرجٍ أو عمًى، أو أي مرض مُزمِن خطير، ولا يطلبون عيالًا أو مالًا ينتشلهم من الفقر، فهم بلا بلايا تتطلب معجزة، لكنهم كانوا يرغبون بخلاص يحقِّق لهم السَّكِينة والراحة، كانت عيونهم مفعمةً بنظرات أسيانة وحزينة بذلك الحزن الذي لا يُعرَف له سبب، أو تستبين له علة، لكنه يتطلب خلاصًا يتوق له الجميع.

"في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٦٨، الموافق ٢٦ برمهات سنة ١٦٦٤ قبطي وكما بيَّنت الصحف، عقدت البطريركية بالمقر البابوي بالأزبكية بالقاهرة مؤتمرًا صحفيًّا أذاع فيه نيافة الأنبا أثناسيوس أسقف كرسي محافظة بني سويف بيان صاحب القداسة البابا كيرلس السادس بالإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، بإعلان حقيقة ظهور السيدة العذراء بالكنيسة المدشنة باسمها بضاحية الزيتون، وقد أجاب عن سؤالٍ من أحد الصحافيين يقول: لماذا ظهرت السيدة العذراء في مصر بالذات، وفي هذا الوقت؟ وردَّ بقوله: كنا في حاجة ماسة إلى هذا الظهور لتثبيت الأيام في زمن ضعُف فيه الاستمساك بعرى التقوى، وكان اليهود قد استولوا على الأراضي المقدسة بالقوة، وكان أسبوع الآلام والاحتفالات بصَلْب المسيح وقيامته قد قاربت، وكان

الحجاج إلى الأماكن المقدسة يتأهبون في مثل هذا الوقت من كل عام لرحلتهم المباركة التي حُرِموا منها باحتلال إسرائيل لها، فكأن العذراء تهرب إلى مصر، كما هربت إليها في ظروف مماثلة من قبل، تعبيرًا عن حزنها وألمها، وتعويضًا لنا عما فقدناه باحتلال اليهود، وهي لفتة روحانية من السماء لها دلالتها في رفع روحنا المعنوية وتوكيدًا لرحمة الله بنا ورعايته لنا وحدبه علينا.

كنت وأنا أقف عند الكنيسة كلَّ ليلةٍ تبدو لي هذه (اللفتة الروحانية) على وجوه الناس، الكبار والصغار، الفقراء القادمين بأسمالهم وملابسهم الرثة من النجوع والقرى البعيدة في الشمال والجنوب، والأغنياء الميسورين الذين ربما جاءوا بحثًا عن خلاص من حيواتهم المملة المكرورة المشبعة حتى الثمالة بالفراغ واللا جدوى، وربما كانت اللفتة الروحانية تشملني أنا أيضًا، بينما كنت أتطلع طوال الليل، مثل الآخرين، إلى تلك القباب الرمادية، مترقبة الظهور المريمي، بينما أحلم وأغيب بأفكاري بعيدًا عن هذا الزحام بأن أحقق أملي ذات يوم وأكون بطلة جمباز أو راقصة مرموقة كفريدة فهمي نجمة فرقة رضا للرقص الشعبي. في تلك الأيام، كنت ما زلت طالبة بالفرقة الأولى بمعهد التربية الرياضية، وكنت أظن وقتها أن الرقص هو كماء المحاياة في حكايات ألف ليلة وليلة، وهو بهجة الوجود، وببساطة: أنا أرقص، إذًا أنا موجود.

بالطبع، كانت أفكاري هذه تُعَدُّ شاذة وغريبة وضد الجميع: أبي وأمي، وحتى أختي التي كانت تكبرني بأعوام قليلة، بل الجيران والأقارب، ومعظم الناس كذلك، الذين يعتقدون أن الرقص قلة قيمة وغيابًا للوقار، وعندما كنا نذهب لأفراح عائلية أو أفراح بعض معارفنا، كانت أمي تحظر علينا الرقص لأنه (مياعة ومسخرة وقلة أدب). صارعت كثيرًا حتى وافق أبواي على دخولي معهد التربية الرياضية، فمجموعي بعد خروجي من عنق الزجاجة المسمى الثانوية العامة كان يؤهلني لدخول كليات أخرى، لكني أقنعت والدي والذي كان يتمنى التحاقي بكلية البنات جامعة عين شمس، أن معهد التربية الرياضية مخصَّص للبنات فقط ككلية البنات، وليس تعليمًا مشتركًا للبنين والبنات، وكان تفوُّقي الدائم في الجمباز خلال المرحلة الثانوية هو شفيعي ومعيني على هذا الإقناع.

وفي النهاية، وربما خشية أن أفشل في أي دراسة أخرى، فقد وافق أبي لأن "معهد التربية الرياضية نهايته شهادة عالية والسلام" كما قالت أمي. في تلك الليلة البعيدة، وبينما كنت أتطلع إلى القباب الرمادية، وأحلم بخلاصي مثلما الآخرين، وأحرِّك قدميَّ درءًا لتعب طيلة الوقوف بحركاتٍ

راقصةٍ بطيئةٍ، إذ تعالت حولي أصوات صارخة: "هناك.. هناك.. عند القبة اليمين". كانت دهشة الأصوات منبعها أن الساعة كانت لم تزل العاشرة والنصف، والمعتاد أن ظهور السيدة العذراء لا يكون إلا بعد انتصاف الليل، وفي أوقات متباينة قد تصل إلى ما قبل بزوغ الفجر مباشرة، تعالت زغاريد وتداخلت مع صياح هستيري لشابة ترفع صليبًا خشبيًّا ضخمًا، رحت أشبُّ وأقف على أطراف أصابع قدمي، في محاولة مستميتة لأرى ما يراه الآخرون دون جدوى، فالزحام كان على أشده، والواقف أمامي مديد القامة، يحجب بهيكله الجسدي كل رؤية أتوق لها، بشكل عفوي لا شعوري مددتُ يدي، ونقرت بأصابعي النحيلة على ظهره نقراتٍ خفيفة وأنا أرجوه:

- من فضلك.. روح ناحية الشمال عاوزه أشوف.

تحرَّك بالكاد، فالحركة كانت صعبة بالفعل، لكنها ورغم محدوديتها، أتاحت لي رؤية ذلك الطيف الفسفوري الأبيض المتصاعد من القبة، وتلك الحمَّامات البيضاء المتطايرة حوله.

ساد صمتٌ للحظاتٍ، وكأن كل هذه الناس وتلك الجموع لا أحد منها بالمكان، فالجميع كان مأخوذًا مبهوتًا، تمتمت بينما قلبي يخفق بشدة:

- سبحان الله.. سبحان الله.

كان المشهد، والذي أظنُّ أنه استمر حوالي دقيقة تقريبًا، قد اختفى، لكني وبمجرد أن أنهيت تحديقي في القُبة غير مصدقة ما رأته عيناي منذ لحظاتٍ، اكتشفت أن هناك من يحدق بي أنا، كان ذلك الشاب الذي استسمحته أن يتزحزح عن مكانه منذ قليل، ينظر إليَّ بإمعانٍ، بينما وجهه المتهلل بتساؤلاتٍ يجعلني أُسائِل نفسي: أظن أنني رأيت ذلك الشخص قبل ذلك!

قبل أن أقدح ذهني في التفكير، بادرني بسرعة:

- أنا شُفتك يوم مظاهرات الطيران في ميدان التحرير.. فاكرة؟

- آه.. يا خبر.. أنت شدتنا أنا وزميلتي، وجريت معنا بعيدًا عن العساكر.. آه.. قلت وابتسمت.

- بعدما ركبت الأتوبيس مع زميلتك مشيت بسرعة.. خفت أن يكون مخبر مراقبني أو غيره.. يا ترى وصلتوا يومها البيت بالسلامة.

- الحمد لله.. متشكرة جدًّا.. لولا أنك شدتني كان عسكري الأمن المركزي لطشني بالكرباج.

- لا.. العسكري كان من الهجَّانة، لأنه كان على حصان وفي يده كرباج.. عساكر الهجَّانة مختلفين عن عساكر الأمن المركزي.

سمعت طنط "أتينا" تنادي:

- يا عفت.. يا عفت.. إنت فين؟

التفتُّ باتجاه صوتها، كانت طنط "أتينا" قد سحبها الزحام بعيدًا عني قليلًا، وجدتها واقفة بين مجموعة من نساء ريفيات تتحدث معهن.

جريت ناحيتها وسمعتها تقول:

- خلاص يا أم حسين. هاتي بجنيه واحد بس.

أمسكتها من يدها بعد أن وصلت إليها بعد مباعدة الناس بيني وبينها، وسألتها:

- ناوية تشتري زبدة؟!

- لا.. معها كحل فلاحي.. كحل فرن.

ثم إنها تأبطت ذراعي وسرنا.

في تلك الليلة، وبينما كنت أضع رأسي على الوسادة لأنام، بدأت أحداث ذلك اليوم والتي كانت قد مرَّت عليها عدة أسابيع، ترتسم صورها بقوة في ذهني. كنت في طريق عودتي من كلية التربية الرياضية بمنطقة الجزيرة، إلى بيتنا في الزيتون، بعد يوم دراسة حافل بالتدريبات الجسمانية، برفقة زميلتي وصديقتي هدى، وعندما وصلنا إلى حيث يقبع الأسدان الرابضان عند نهاية كوبري قصر النيل، رأينا حشودًا صغيرة قد بدأت تخرج وتتدافع من شارع قصر العيني وتتجه إلى ميدان التحرير، أسرعنا الخطى، وبدأنا في قطع الطريق مستهدفين الوصول إلى محطة الأتوبيسات الرئيسية، حيث اعتدنا الركوب منها إلى منازلنا، لكننا فوجئنا بتدفُّق متزايد ومتسارع لهؤلاء المحتشدين، والذين كانوا طلابًا قادمين من جامعة القاهرة وطلاب كلية طب قصر العيني، وطلاب كلية تجارة عين شمس الواقعة بشارع قصر العيني، هكذا فهمنا من بائع الصحف الواقف عند الحديقة الممتدة أمام مبنى مجمع التحرير. جرينا حتى نركب الأتوبيس، حيث تتركني هدى في آخر شارع مصر والسودان، وتسير إلى بيتها بحدائق القبة، وأواصل رحلتي حتى الزيتون، في هذه الأثناء تعالت هتافات الطلاب المتظاهرين، مُطالِبة بمحاكمات للمسؤولين من قادة سلاح الطيران، والمتسببين في كارثة هزيمة ١٩٦٧، ورأيت الناس قادمين من الشوارع المحيطة بالميدان يندفعون باتجاه المظاهرة: أفندية وفلاحين بجلاليب، وباعة جائلين، حتى الذين كانوا داخل الأتوبيسات نزل بعضهم وعادوا أدراجهم لينضموا إلى جموع المحتجين.

غلى الدم في عروقي، وشعرت بسخونة يد هدى في كفي، عندما اخترقت أذنيَّ الحناجر الهادرة بهتاف:

عاوزين حكومة حرة.. العيشة صارت مرة.

بالروح بالدم نفديك يا سينا.

في لحظة، ودون أن نتبادل كلمةً واحدةً، اندفعنا باتجاه المظاهرة التي كانت قد احتلت الميدان بآلاف الناس، ورحنا نصرخ مع الهاتفين "عاوزين حكومة حرة..."، "بالروح بالدم نفديك يا سينا".

وفجأة، ومن حيث لا ندري، ظهر مئاتٌ من عساكر الأمن المركزي، وأولئك الجنود الراكبين على ظهور الخيل، وبدأ الرصاص المطَّاطي يلعلع في الميدان، وطرقعات سياط راكبي الخيول تُسمع هنا وهناك، صرخت هدى إذ رأت سوطًا يكاد يلامس ظهري، لكنَّ يدًا قوية ظهرت فجأة ودفعتني بعيدًا عن السوط الذي كنت ولا بُدَّ سأتلقى لسعاته الموجعة، وظلَّت تدفعني بينما أشدد قبضتي على كف هدى، ولا أعرف ساعتها أي معجزة جرت حتى صرنا عند محطة الأتوبيسات داخل الميدان.

رغم الخوف والرعب، كنت في حالة غريبة من النشوى والفرح، وأظن أن هدى كان يعتريها هذا الشعور كذلك. لم أكن قد مررت بتجربة مماثلة لهذه التجربة من قبل، فأبي وأمي أبعد ما يكونان عن السياسة والشأن العام، رغم أن أحد أبناء خالات أمي كان قد استشهد في حرب ١٩٤٨ مع الصهاينة، حتى كرة القدم لم يكن لأبي أي اهتمام بها، وأظنُّ أنه كان يعتقد أن لعب الطاولة أفيد وأمتع منها، كان الهتاف والتعبير عن الرفض والغضب وسط هذه الجموع الطلابية تجربةً لها مذاق خاص، مذاق تخالط فيه الخوف والفرح، الخوف من الجنود والذي لا يضارعه إلا الخوف من أبي لو علم بطريقة أو بأخرى ما قمت به من السير والهتاف في مظاهرة، أما الفرح فكان لأنني، وربما لأول مرة، أحقق إرادتي واختياري، بعيدًا عن عيون أبي وأمي.

بينما كنت أعبر البرزخ الواصل بين الصحو والنوم، تجلت بمخيلتي وبقوة صورة ذلك الشاب الذي خلصني من العسكري.. عسكري الهجانة – كما صنفه – منذ حوالي شهرين، والتقيته في ذلك المساء عند كنيسة العذراء في ليلة لن أنساها أبدًا.

سرت بجسدي نشوى غريبة، وأنا أستعيد وأتذكر ما ذكرني به يوم المظاهرة من لقاء بيننا، وانتابني شعور غامض من الفرح والقلق والخوف قبل أن أضيع في بحر النوم.

قليلة هي لحظات السعادة التي يعيشها الإنسان مهما امتدت به سنوات الحياة وعاش عمرًا مديدًا، أما لحظات السعادة القصوى فهي ومضاتٌ قلَّما يفيض بها الزمان، فيظن الكائن أنه لحنٌ خرافيٌّ شرعت بعزفه سائر الكائنات والموجودات المحيطة به، أو أنه روح خالصة شفيفة انطلقت بعيدًا خارج قمقم الحياة إلى فضاءات واسعة لا نهاية لها. هذه اللحظات النادرة.. لحظات السعادة القصوى، عشتها بعد أسبوع من لقائي ذلك الشاب، منقذي يوم المظاهرة عند كنيسة السيدة العذراء. كنت قد خرجت من بيتنا في عمارة المنشاوي، ووصلت إلى محطة الأتوبيس المعتاد ركوبي منها، بشارع سليم الأول العمومي، ولأذهب إلى معهدي الرياضي، وإذ بي ألمحه واقفًا يتصفح الجريدة الصباحية. اقتربت منه وهتفت بصوت مرح خفيض:

- بالروح بالدم.. نفديك يا سينا.

تلوَّن وجهه بفرح عندما رآني ونطق:

- صباح الفل.

ثم طوى جريدته التي كان شخصان خلفه يتشاركان قراءتها معه، كما هي العادة عند محطات الأتوبيس وداخل المواصلات العامة، فأغلبية الناس لا تشتري الصحف بدعوى أنه لا ضرورة لتضييع الفلوس فيها.. مدَّ يده ليصافحني بينما يُعرِّف بنفسه:

- حسام عبد الفتاح.. هندسة القاهرة.

بدوري أعلنت:

- عفت زين.. أولى تربية رياضية.

وصل الأتوبيس، وكان مكدَّسًا بالركاب كما هو الحال دائمًا خلال الفترة الصباحية المبكرة التي يتوجه فيها أغلب الناس إلى المدارس والجامعات، والأعمال والمؤسسات الحكومية، فاقترح حسام أن نتجنب الزحام وننتظر حتى قدوم أتوبيس آخر غيره، فربما يكون أقلَّ ازدحامًا، وافقت بسرعة ضمن تواطؤ لا شعوري، إذ كانت تتصاعد بداخلي رغبة عارمة في التعرف على هذا الشاب، والاقتراب منه. كنت منفعلة ومتحمسة، فقد بدا لي جذابًا جدًّا، أو بالأحرى الرجل في أمثل حالاته، ربما انتابني ذلك الشعور بسبب نبرات صوته النقية المفعمة بالصدق، وأدائه التعبيري القوي بعينيه وشفتيه. بدا لي شخصًا أعرفه منذ زمن بعيد، وإنسانًا صادقًا يمكن الوثوق به.

قلت له إنني ذهبت ليالي عديدة إلى الكنيسة، لكني لم أصادفه مرة أخرى، قال إنه ذهب مرتين

وبحث عني بين الناس في أكثر من مكان، لكنه لم يجدني، وكاد أن يسأل السيدة التي كانت تقف يومها بالقرب مني عندما لمحها، لكنه لم يكن يعرف اسمي. ضحكت وعلقت: طبعًا من الصعب اكتشافي في الزحام الشديد، لأني قصيرة ونحيفة، وطنط "أتينا" جارتنا راحت يومين من غيري، ونزلت متأخرة عن بقية الجيران، لأن أخت عم وليم وعيالها وصلوا من أسيوط وصارت تروح معاهم.

جاء أتوبيس آخر، وكان أقل ازدحامًا بالفعل، فصعدنا إليه، ولا أدري كيف مرَّ الوقت ونحن نتحادث. كانت لحظات السعادة القصوى التي عشتها عندما لمحته عند المحطة ما زالت سارية المفعول في كياني، وامتد زمنها حتى وصل الأتوبيس إلى محطته الأخيرة بميدان التحرير. كان حسام أول شاب يقترب من حياتي اقترابًا حقيقيًّا، فأنا فتاة، ومنذ مراهقتي لا يوجد بمظهري ما يلفت أنظار الجنس الآخر كثيرًا؛ فجسدي ضئيل، وملامح وجهي تفتقد إلى حدٍّ ما للنعومة والتناسق، ولأني مارستُ رياضة الجمباز طوال سنوات دراستي بالمرحلة الإعدادية، ثم الثانوية بعد ذلك، فقد تكوَّرَت عضلات ذراعيّ، وبطنيّ ساقيَّ، أما شعري فرغم نعومته الشديدة فهو خفيف، باهت اللون.

لم تكن لي أي علاقة خاصة بشاب طوال مراهقتي، وكنت أعرف أن بعضَ زميلاتي بالمرحلة الثانوية يواعدن شُبانًا، ويتبادلن معهم خطابات غرامية، لكني لم أعرف علاقة من هذا النوع، وحتى شبان عائلتي، وشباب الجيران، كنت أتلقى منهم معاملة أخوية ليس إلا. كنت خلال تلك السنوات، وكما هو الحال الآن، أحبُّ الرياضة البدنية والرقص، ولا ينشغل بالي بما تهتم البنات أمثالي به، فلا أضع مساحيق التجميل، ولا أذهب إلى الكوافير، إلا بمناسبة عُرس أو حفلة لسببٍ ما في العائلة أو عند الجيران. كنت على عكس أختي عفاف التي تكبرني بأعوام، وتتمحور حياتها حول رغبتها في الحصول على زوج بمواصفات قياسية (وسيم وميسور وواقع لشوشته في غرامها).

قبل أن نفترق في ميدان التحرير، كنت قد عرفتُ أن حسام طالب بالسنة النهائية بكلية الهندسة، متخصص في الميكانيكا، كما أنه منخرِطٌ في نشاط طلابي مع زملائه، ويفكرون جديًّا في الذهاب إلى سيناء، والقيام بكفاح مسلَّح ضد المحتل الصهيوني؛ لأن الجيش وحدَه لا يكفي، والشعب لا بُدَّ أن يشارك في معركة التحرير.. مثلما قال.

كان يتكلم بمرارة وحُرقة، وسألني إن كنت ذاتَ يومٍ قد التحقت بـ "منظمة الشباب الاشتراكي"، لأنه تربى سياسيًّا فيها، واستفاد منها كثيرًا، فشرحت له أن أبي لا يسمح لي بالاشتراك في الرحلات المدرسية إلا بصعوبة، وأنه وافق على ممارستي للرياضة والجمباز، لأن عم وليم زوج طنط "أتينا" أقنعه وهو المدرس، وأدرى بشؤون التعليم، أن التفوق الرياضي بالمرحلة الثانوية يتيح للطالب الحصول على خمس درجات مئوية يضاف إلى المجموع الحاصل عليه في الثانوية العامة، والحمد لله حصلت على الدرجات الخمس، وهو سعيدٌ الآن، لأنني سأحصل في النهاية على شهادة عالية، حتى ولو كانت في التربية الرياضية، لأن أختي حصلت بصعوبة على الثانوية العامة فقط، وآثرت أن تنهي دراستها تمامًا، وهو يتمنى التحاقها بأي وظيفة مهما كانت، ليس من أجل المرتب والفلوس، ولكن حتى تتاح لها فرصة الحصول على زوج مناسب.

بعد أن ودَّعت حسام في ميدان التحرير، وعلى أمل لقاء آخر في صباح اليوم التالي، سرتُ على كوبري قصر النيل متخذةً طريقي إلى معهدي، وأنا أفكر فيما دار بيننا من كلامٍ وفي كل كلمة قالها لي. لم أكن أتخيل أن هناك من يفكر في مسألة الكفاح المسلَّح، ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عما أسماه بـ "منظمة الشباب الاشتراكي"، بدا لي وكأن حسام قد أتى من عالمٍ آخر خرافيٍّ، لا أعرفه، ولا علاقة له بعالمي وعالم أسرتي والجيران، لم نكن نتحدث داخل البيت في السياسة تقريبًا، فأبي كان يكرهها مثلما يكره كرة القدم، ويقول إن الاقتراب منها خطرٌ هي وأسلاك الكهرباء. كان يستمع إلى خُطَب عبد الناصر فقط، ويحبه على طريقته الخاصة، فهو يوافق على كل ما يقوله بهزِّ رأسه، وبعبارة (والله معه حق) وكأنما يمنحه توكيل ممارسة السياسة نيابة عنه.

حسام، بدا لي وكأنه كان يرضع السياسة وهو طفلٌ في المهد، يتحدث عنها بجدية وحماس، يتفلطح معه أنفه المفلطح بالأصل قليلًا، وتنفر عروق رقبته، بينما تتحرك تفاحة آدم صعودًا وهبوطًا أسفل ذقنه، وعندما كان يتصاعد حماسه ويبلغ ذروته فهو يمسك بخصلة من شعره الخشن الكثيف المتكوم فوق رأسه ويبرمها بين أصابعه، وكأن هذه الحركة تعينه على التفكير. كنت وأنا أسير مستدعية صورته بمخيلتي، أشعر وكأن عيني تتفتحان على عالم جديد غريب، عالم رائع لا أعرفه، لكنه يجذبني ويشدني إليه بقوة وأنا أستجيب، حتى المشاهد التي كنت أمر عليها كل يوم وأنا في الطريق إلى المعهد، بدت لي وكأنني أراها لأول مرة: حديقة الأندلس، وبرج القاهرة، وشارع الجبلاية ذاته، فقد بدت لي شجرة التين البنغالي أكبر وأضخم وأجمل، وتحتل مساحة كبيرة

من الشارع، وعندما وصلت المعهد، والتقيت هدى قلت لها دون مناسبة منطقية للكلام، وأنا منفعلة جدًّا:

- يظْهَرْ موضوع سيناء كبير جدًّا.. شباب في الجامعة عاوزين يعملوا كفاح مسلَّح فيها ضد الإسرائيليين.

ووعدتها أن أحكي لها عن لقائي مع حسام، ونحن نسيرُ على كوبري قصر النيل بعد الانتهاء من اليوم الدراسي.

١٩٧٣

امتدت علاقتي بحسام على مدى خمس سنوات، ومنذ ذاك اليوم الذي التقينا فيه عند محطة أتوبيس شارع سليم بالزيتون. كنا نلتقي بذات المكان صباحًا، أو ينتظرني، عند آخر كوبري قصر النيل أمام تمثال سعد زغلول، أو تحت تمثال الأسد الرابض ناحية اليسار، وذلك بَعد الظهر عند خروجي من معهد الرياضة، فنذهب إلى حديقة الأندلس، أو الحديقة الفرعونية لنجلس تحت نخلة فرعونية ذات ساق أبيض ضخم وكأنه وتدٌ دُقَّ في الأرض دقًّا، سماها حسام "نخلة حور محب"، واعتبرها نخلتنا الأثيرة الشاهدة على الحب الرابط بيننا.

كنت مبهورة بحسام انبهارًا يتجاوز الحب والغرام الذي بت أعرفه ولأول مرة في حياتي، فحسام بات بالنسبة لي مسألة خلاص، خلاص حقيقي من حياة معقدة، تثقلني بكمٍّ هائلٍ من الأفكار والقِيَم والمفاهيم، وكأنني أرتدي عددًا من الأثواب السميكة الثقيلة واحدًا فوق آخر، فتعوق حركتي وتكبِّلني، وتجعلني سجينة أوهام عديدة تتعلق بذاتي، وبالآخرين والعالم، وها هو يخلَعُ تلك الأثواب عني، ويطوِّح بها بعيدًا، بكل أفكاره الثورية الجديدة، لأستعيد حريتي ونفسي، وأنطلق في الحياة.

هدى كانت تخرج معنا أوقاتًا كثيرة، بعد أن حكيت لها حكايتي معه من (طق طق لسلام عليكم)، وارتأت فيه ومنذ وقت المظاهرات ولحظة مساعدته لنا، أنه شهمٌ وجدعٌ جدًّا. باختصار: كانت تشجعني على استمرار العلاقة معه، وتحثني على أن أرتبط به عندما تسمح الظروف.

كنا نسير أحيانًا، ونعبر كوبري الجلاء لنذهب إلى حديقة الأورمان، أو حديقة الحيوانات، فنجلس تحت الأشجار القديمة الرائعة، ليحدِّثنا حسام طويلًا عن الكارثة التي تعيشها مصر كلها بسبب احتلال سيناء، والعار الذي لحقَ بالمصريين جميعًا بسبب هذا الاحتلال الذي ما كان يمكن أن يحدث لو كان للشعب رأيٌ ودورٌ حقيقي في اتخاذ القرارات المصيرية للبلاد. وكان يقول دومًا:

إننا كشباب يجب أن نفيق من الغيبوبة التي نعيش فيها كلَّ يومٍ، غيبوبة أفلام نادية الجندي ونبيلة عبيد، ومسلسلات التليفزيون التافهة، وكل تلك الأغاني المبتذلة.. ما معنى أن تغني واحدة وتقول: "الطشت قال لي يا حلوة يا اللي قومي استحمي".

في أعقاب ذلك كان حسام يضيف:

- حاولي تطلعي على الكتب يا عفت، وكذلك أنتِ يا هدى. التثقيف الذاتي بالغ الأهمية، عمومًا.. إن شاء الله أجيب بعض الكتب، وكل واحدة لما تخلص قراءة كتاب تسلفه للثانية.

بصراحة لم أكن أقرأ كتبًا خارج ما هو مقرر خلال السنة الدراسية التي أكون فيها، لكني كنت أقرأ موضوعات مصوَّرة أحيانًا في مجلة "العربي" الكويتية، لأن أبي يشتريها كل شهر، وهي موضوعات عن مدن وبلدان بأماكن مختلفة من العالم، كذلك كنت أتصفح مجلة "حواء" الأثيرة لدى أختي عفاف، لأنها كانت تفصل من باترونها المُهدى مع كل عدد منها كهدية، فساتين وبلوزات وجونلات.

في غضون شهور قليلة بدأت كتب حسام المهداة لي تفعل بي فعل السحر، وتنقلني إلى عوالم أخرى لم أكن أعرفها قبل ذلك أبدًا. عوالم بشر يتصدون للظلم والاستغلال، وكل ما يعوق حريتهم الإنسانية، كان حسام أوَّل مَن حدثنا عن شعراء الأرض المحتلة: محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، ولن أنسى عندما دعانا أنا وهدى لحضور حفلٍ موسيقيٍّ لفِرقة عبد الحليم نويرة بالجامعة وغنوا:

وطني! يعلمني حديد سلاسلي
عنف النسور ورقة المتفائل
ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة وعرس جداول

كان ذلك غناءً مغايرًا لكل ما سمعناه ونسمعه خلال هذه الأيام، غناء يؤجِّج المشاعر، ويعمِّق بداخلنا كل ما قاله حسام عن قضية فلسطين واغتصابها، ووجود إسرائيل المعوق الحقيقي لنا وللعرب جميعهم للتقدم واللحاق بالعصر، وأن تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني لن يكون إلا بوجود نظام وطني تقدُّمي يُحكم بدولة من الدول المحيطة بفلسطين.من خلال كتب حسام عرفت: جوركي، وأنطون تشيكوف، وإميل زولا، وبول إيلوار، وجاك بريفير، وناظم حكمت، وبابلو

نيرودا.. وغيرهم، كنت أظلُّ مبهورة بعد قراءة كل عملٍ من أعمالهم. باختصار كان حسام يفتح عينيَّ على عوالم مدهشة ومفعمة بالمعاني الإنسانية.

في إحدى المرات، وقبل أن نركب الأتوبيس من ميدان التحرير ونعود إلى منازلنا، اقترح حسام أن نشرب شايًا في مقهى إيزافيتش المطل على الميدان.

في المقهى اكتشفت أن حسام على معرفة قوية بأشخاص كثيرين كانوا بالمقهى، أخذ يحييهم ويصافحهم، بينما كنت متوترة وخائفة قليلًا، فهذه أول مرة في حياتي أدخل مكانًا لا يدخله إلا الرجال فقط، ولو عرف أبي بدخولي إليه لاعتبرها جريمة لا تُغتفَر، ورغم ذلك التوتر والخوف فقد داخلَني شعورٌ آخر بالفرح والإثارة، وكأنني أخوض مغامرة كبرى في الحياة.

في أحد أركان المقهى الفسيح، كانت تجلس فتاة طويلة تضع نظارة على عينيها وتدخن ضمن مجموعة من الشباب. حيَّاها حسام بحرارة عندما رآها، وعندما جلسنا قال إنها زميلة له بالجامعة، تدرس بكلية الآداب، لكنها زعيمة طلابية، تشارك في الاعتصامات، وتقود المظاهرات، وفي يوم المظاهرة التي التقينا فيها كانت هي من نجح في إيقاف الدراسة في كثيرٍ من مدرجات كليتها، وإقناع الطلبة والطالبات بالخروج إلى الشارع في مظاهرة.

كنت أوَّل مرةٍ أكتشف أن البنات يَقُدْن المظاهرات، ويبدو أنه أدرك ما كنت أفكر به؛ إذ قال:

- عقبال ما تقودي مظاهرة بنفسك، وتصبحي نجمة طلابية كبيرة، وتفردي صدرك للدنيا في أمور حقيقية.. يعني مسائل أكبر من العذراء والموالد.

تعجبت واغتظت من كلامه، إذ كانت نبرة صوته لا تخلو من السخرية والتعالي.. قلت بعد أن صمتُّ للحظات:

- طيب.. إنت نفسَك رحت عند كنيسة العذراء وقت ظهورها أكثر من مرة.

ردَّ بثقة أغاظتني أكثر:

- كنت وقتها عاوز أتفرج.. لكن الموضوع عمره ما دخل دماغي. بصراحة حسيت أنه الموضوع مفبرك من عبد الناصر، بغرض تلهية الناس عن خيبة النكسة وضياع سينا.. يعني موضوع سياسي ومعمول عمولة و....

استشطُّت غضبًا وقاطعته:

- يا سلا...م يفبركوا موضوع بخصوص ظهور العذراء لأنهم عاوزين يلهوا الناس.

بصراحة فكرة سخيفة ومبالغ فيها جدًّا.

كنا قد انتهينا من شُرب الشاي وأكلنا معه فورنو وهو مهلبية موضوعة بالفرن على الطريقة اليونانية، فصاحب المقهى الخواجة إيزافيتش يوناني أصلًا، نادى حسام الجرسون ليعطيه الحساب، وبينما كنا نخرج من باب المقهى لنعبر الميدان الفسيح، قال وهو يمسك بيدي:

- الغيبيات معشعشة في دماغك.. لازم تتخلصي منها.

بدأ عالمي المحدود يكبر ويتمدَّد، وبمرور الأيام صرت كإسفنجة صغيرة تتشرب شيئًا فشيئًا عالم حسام المثير وتتشبَّع بأفكاره. كان قد بدأ يقدمني لزملائه وأصدقائه بالجامعة وخارجها، وكنا نذهب كمجموعة من البنات والأولاد إلى الحديقة اليابانية بحلوان، بعد أن نركب المترو من باب اللوق، أو نذهب إلى الهرم، ونجلس ساعات على أحجاره الضخمة العتيقة، فيدور الحوار عن حروبنا مع الصهاينة منذ العام ١٩٤٨، وأن المواجهة مع إسرائيل تبدأ من العدالة الاجتماعية، وأن إزالة الفوارق بين الطبقات - كما جاء بمبادئ ثورة يوليو الستة - لا تكفي، وأن الفقراء فقراء لأن هناك أغنياء.

ظلَّ انبهاري بكل هذه الأفكار يزداد يومًا بعدَ يومٍ، فأنا لم أفكر في أي يوم من الأيام في مسألة الطبقات هذه، ولا كانت تخطر على بالي أبدًا. أخذت أعيد النظر في كل شيء يتعلق بحياتي: بيتنا وأبي وأمي والجيران ومولد العذراء والمعجزات. الأهم هو أنني بدأت أُعيد النظر في شكلي، فلم يَعُد يهمني كثيرًا كوني قصيرة، ووجهي بلا أَلَقٍ ويفتقد إلى حيوية الشباب، ولم يَعُد يضايقني تواضُع ملابسي وقلة مصروفي الشهري الذي كنت أتقاضاه من أبي ويكفيني بالكاد، ولطالما شعرت بالضيق عندما كنت أعقد مقارنات بيني وبين العديد من زميلاتي بالمعهد، لأكتشف تميزهن عني. كانت الثقة المتراجعة بالنفس عادة قد أخذت تتقدم بداخلي بوتائر سريعة، خصوصًا بعد أن باح حسام بحبه وتعلُّقه بي، وقال إنني جذبت انتباهه، منذ أن التقاني أول مرة يوم مظاهرة الطيران، بسبب شجاعتي وحماسي، ورِباطة جأشي، وأنه بمرور الأيام صار يستشعر وكأنني تميمة سحرية تجلب له السعادة والفرح، لا يعلقها على صدره، لكنه يخبئها بأعمق أعماق قلبه، كما أنه كان قلقًا ومؤرقًا نفسيًّا خوفًا من ألا يجد الفتاة المحبة التي تتفهم عالمه، وتشاركه أفكاره وآراءه، وكان لديه تعريفٌ بسيطٌ للحب وهو: أن ننظر معًا في الاتجاه ذاته، لا أن ننظر بعضنا لبعض.

حقق حسام لي أمنية طالما تمنيتها طوال حياتي، وهي أن يكون لي أخٌ يقاربني في العمر، أخرج

معه وأسير بجانبه في الشارع، مثل كل البنات زميلاتي بالدراسة. ما جذبني في حسام منذ اليوم الأول للقائنا ومنذ لحظة إبعادي عن عسكري الهجانة، ربما هو شعوري تجاهه كأخ.. أخ وحبيب، وعاشق يأخذ بيدي إلى عوالم مدهشة جديدة (ما كل هذه النعمة يا رب؟! وما كل هذا الرضا عني؟!).. طالما همستُ لنفسي بينما أتنهد بارتياح.

تزايَد اهتمامي بالقراءة. كنت خلال دراستي في الإعدادي والثانوي أحبُّ الشعر، لكني لم أقرأ أبعد مما كتبه أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران وإيليا أبو ماضي. حسام عرَّفني بشعراء كثيرين لم أسمع عنهم أو أقرأ لهم من قبل، مثل: بدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل. كان يحمل لي أشعارًا مترجمة أيضًا لـ : بول إيلوار ولويس أراجون وبابلو نيرودا، بعض هذه الأشعار بات أثيرًا إلى نفسي، وبتُّ أحفظ مقاطع منها عن ظهر قلب، وما زلت أردد حتى الآن كلمات "بول إيلوار":

خلقنا لنكون أحرارًا

خلقنا لنكون سعداء

سنوات علاقتنا الممتدة، أشعلت بداخلي طاقة هائلة من التمرد على أسلوب الحياة التي أحياها عمومًا، والحياة داخل بيتنا خصوصًا: الخروج من البيت بإذنٍ مُسبَّب.. العودة إليه لا بُدَّ أن تكون بعد غروب الشمس بساعة على أكثر تقدير.. المشاركة الإجبارية في المناسبات الاجتماعية السخيفة، مثل: الذهاب لبنت عمتي والمباركة لها بمناسبة إنجاب طفلها الثالث، وبدأت أحتقر مجلة "حواء" وباتروناتها الورقية المبهرة لأختي، حتى أبي شعرت بأنه محدود الثقافة، ومعارِفُه بسيطة سطحية، وأكبر دليل على ذلك مجلة "العربي" الكويتية الحريص على قراءتها. عمومًا، فقد صار يدهش كثيرًا عندما يجدني مستغرقة في القراءة ويقول: غريبة والله! معهد التربية الرياضية خلاكي تصبري على كتاب، وتسهري طول الليل عليه، يا ما غلبت سنين معاكي حتى تفتحي كتب المدرسة وتذاكري.

حصلت ذات مرة من حسام على صورة إرنستو جيفارا، الرجل الذي كان بمثابة رمز للثورة والتمرد بالنسبة لحسام ورفاقه، وبالنسبة لي أنا أيضًا، وعندما علقتها على الحائط بجوار سريري في الغرفة التي أتشارك فيها مع أختي.. أمي ظنت أنه أحد نجوم السينما الأجانب، وعلقت ساخرة:

- والله عشنا وشفنا.. تحطي صور الممثلين على حيطان البيت وعند سريرك.

بعد تخرُّج حسام من الجامعة لم يلتحق بالجيش لتأدية الخدمة العسكرية، لأنه وحيد أبيه المتوفى، ومعفي من هذه الخدمة بحكم القانون. عُيِّن في شركة مقاولات قطاع عام، وكنا قد اتفقنا ذاتَ يومٍ ونحن في حديقة الحيوان على الزواج، بينما كنا نجلس منفردين بجزيرة الشاي ونراقب البجعات السابحات. اتفقنا على أن يتم ذلك بعد تخرُّجه وحصوله على عملٍ يضمن لنا دخلًا شهريًّا ثابتًا، حتى لو كان محدودًا.

وبعد فترة من تخرُّجه، كان قد ادخر مبلغًا من المال يعيننا على بدء الحياة، وهكذا تزوَّجنا زواجًا بسيطًا غير مكلِّف، مثلما كان أصدقاء لنا قد تزوجوا من قبل.. دبلتان ذهبيتان لا غير، حُفرَ عليهما اسمانا الأوَّلان: حسام.. عفت. فرح عائلي بسيط في بيتنا بالزيتون، حضرته أمه وخالته وأحد أعمامه بعد أن جاءوا من بلدتهم الريفية البعيدة عن القاهرة، كما حضر بعض أقاربنا والجيران.

وافق أبي على حسام دون صعوباتٍ تُذكَر، فهو يُريد تزويجي أنا وأختي في أسرع وقت، ثم إن حسام شاب ومهندس وأمامه مستقبل لا بأس به مثلما أقنعته أمي، إضافة إلى أن زواجي لن يكلفه أبيض ولا أسود كما يقال، فهو لن يتكفل بجهاز بيت؛ لأن حسام لن يدفع مهرًا ولا شبكة.

فستاني كان من خياطة أختي عفاف، وكان من حظي أن فاتحتها قُرئت على شاب جارنا قبل زواجي بشهرين، فلم تكن عقبة تعوق زواجي على اعتبار أنه يجب تزويج البنت الكبرى أولًا.. عفاف قامت بخياطة فستاني الأبيض الساتان على باترون من مجلة "حواء".. كان بسيطًا وأنيقًا فعلًا بديكولتيه واسع وأكمام جابونيز قصيرة لحد الكتف لا غير، وعندما ارتديته وقت الفرح مع الطرحة عاتبتني وهي سعيدة تبتسم:

- شُفت شغل مجلة "حواء" يا ست هانم. الفستان لافف على عودك، وعامل لك كَسم ومبين جسمك وكأنك مانيكان.. بطلي تتريقي وتستخفي بـ "حواء" وباتروناتها.

ذهبنا إلى بيتنا بعد ليلة مرحة وعشاء بيتي ساهمت في إعداده مع أمي طنط "أتينا" وبعض من نساء الجيران.. طنط "أتينا" عملت تورتة زفاف رائعة، وأنواعًا من الجاتوهات اللذيذة.. عرجُها لم يمنعها من الرقص أيضًا.. فرقصت وهي واقفة في مكانها بعد أن أشعلت الرقص هدى زميلتي وبعض بنات الجيران.

العش السعيد الذي ذهبنا إليه لنبدأ حياتنا الجديدة الواعدة كان شقة صغيرة في بناء شبه عشوائي

يطل على الحقول الخضراء الممتدة على مرمى البصر، وتخترقها ترعة واسعة تتغذى على مائها تلك الحقول. كانت أفضل المتاح، بعد أن حفيت أقدامنا لاستئجار شقة مناسبة في بعض الأحياء القاهرية القريبة من الزيتون، فارتضينا بحي الهرم البعيد. كانت أزمة الإسكان طاحنة آنذاكٍ، فالهجرة من الريف والأقاليم المجاورة للقاهرة كانت في تزايُد دائم لغياب الخدمات الصحية والتعليمية وغيرها في تلك الأقاليم، ورغبة أبنائها العائدين من بلاد النفط بالعيش في المدينة بعيدًا عن الناموس والحشرات ومياه الشرب غير الصحيَّة وغيرها من عشرات الأسباب الأخرى الدافعة لترك الأقاليم والعيش في المدن الكبيرة كالقاهرة أو الإسكندرية.

كانت كرامات النفط قد بدأت تظهر سلبًا في كل تفاصيل الحياة، فالذين عادوا محمَّلين بأموال النفط وذهبه سرعان ما فرضوا مفاهيمهم وقيمهم ومبدأهم الذي صار قانونًا يسري في الحياة : "معك قرش تساوي قرش".

الشقة المستأجَرة كانت بالنسبة لي ولحسام بمثابة قصر، وهي لقطة بكل المقاييس حتى ولو أنها في منطقة زراعية بالهرم، وصاحب البيت المكوَّن من طابقين ويسكنه مع عائلته ومعيزه ودواجنه التي ترعى بالمدخل لم يحصل منَّا إلا على مقدم إيجار شهرين فقط، والإيجار ذاته كان مناسبًا جدًّا لمرتب حسام المحدود باعتباره مهندسًا مبتدئًا بشركة المقاولات.

رغم بُعدي عن بيت أهلي بعمارة المنشاوي في الزيتون، ومع أني شعرت عند ذهابي إلى منزلي الجديد وكأني انتقلت إلى عالم الريف بسبب الغيطان والفلاحين، وواجهة المنزل الذي تركه صاحبه بالطوب الأحمر دون طلاء، إلا أنني كنت أشعر وقتها وكأني بلقيس وقد حُملت إلى عرش سليمان. فأخيرًا سوف أكون حرة وتحت سقف واحد مع حسام.. كنت أحلم بالحرية، حرية نفسي ووقتي وتصرفاتي واتخاذ قرارات نابعة مني تتعلَّق بحياتي وبيومي وبغدي ودون محددات تُفرض عليَّ فرضًا من أبي أو أمي مثلما كان يحدث لي من قبل.

تزوجنا قبل حرب أكتوبر بأشهر، وبقيت قبل يوم الزواج فترة أعاني التوجس والقلق والخوف من حدوث أمرٍ أو ظروف تحول بيني وبين هذا الزواج، فالأحداث المتواترة في البلد كانت تفاجئنا بين الحين والحين، وتسدد لنا ضربات سريعة. كان عبد الناصر قد مات فجأة خلال مؤتمر قمة للرؤساء والملوك العرب بالقاهرة لمناقشة مذابح أيلول الأسود التي جرت لفصائل المقاومة الفلسطينية بالأردن. الصدمة كانت مروعة للجميع، والحزن نضح من وجوه الناس ونظراتهم في

كل مكان، ولكن كم كانت صدمتي عندما وجدت حسام يقول بطريقة شامتة مستخفة:

- الملايين مشت في جنازته وهي متورطة في موضوع سينا.

كانت عبارته القاسية مفاجئة لي بالفعل، فحتى أبي الذي لم يحب السياسة يومًا، رأيته يبكي بحرقة ويقول:

- بكرة تمر علينا أيام صعبة، ونشوف زمن أسود من قرن الخروب.

كنت أحب عبد الناصر، وأعتبر وجوده في حياتنا أمرًا بديهيًّا كشروق الشمس كل صباح، لم أقتنع عندما حاول تبرير كلامه وهو يبتسم:

- عبد الناصر صدم الناس مرتين، مرة عندما كان موجودًا على قيد الحياة، ومرة عندما مات فجأة ودون سابق إنذار، وتركهم متورطين في الورطة التي تسبب هو فيها أصلًا.

في العام ١٩٧٢، جرت مظاهرات ضخمة بجامعات القاهرة، وجامعة الإسكندرية، أُلقي القبض فيها على حسام وعدد كبير من الطلاب والطالبات؛ لأنهم طالبوا الدولة بضرورة الإسراع بالحرب وتحرير سيناء، ورفض كل المبادرات والوساطات الأمريكية مع إسرائيل كمبادرة "روجرز"، إذ إن هذه الوسطات ليست إلا مضيعة للوقت. كانت الوعود باستعادة سيناء المحتلة تتكرر من الرئيس "السادات" بين الحين والآخر بعد أن حل محل "عبد الناصر" في قيادة الدولة، ولكن دون أن تبدو أي مؤشرات أو دلائل على وجود نية حقيقية في مواجهة إسرائيل مرة أخرى. لقد ظلَّ حسام يكتب مع زملاء له بمجلات حائط داخل الجامعة، ويتهمون القيادة السياسية بالتقصير ويندون بها، فالطلاب لم يصدقوا "السادات" ولم يثقوا به أبدًا.

وهكذا اندلعت المظاهرات وتم إلقاء القبض عليهم وحبسهم. كنت وقتها قد تخرجت، وما زلت بانتظار خطاب تعييني عن طريق وزارة القوى العاملة، لأكون مدرسة تربية بدنية بإحدى المدارس الحكومية، اشترينا غرفة نوم متواضعة على قد فلوسنا، واقترحت طنط "أتينا" أن نشتري أنتريه قديم من صالة مزادات يمتلكها رجل يوناني قريب لها، وتقع في وسط البلد، ثم إننا اشترينا بوتجازًا مسطحًا شعلتين ونصف مما تنتجه المصانع الحربية، وضعناه على ترابيزة حديد متينة ورخيصة تصنعها شركة "إيديال" للأثاث المعدني، وهي واحدة من الشركات الأجنبية التي أمَّمها "عبد الناصر" في بداية الستينيات.

كانت بداية حياتنا الزوجية بسيطة، متقشفة إلى حدٍّ كبيرٍ، لكنها كانت مبشِّرة بفرح وسعادة،

ورغم أن عائلة حسام كانت متواضعة وفلاحية بالأصل، إلا أن أمه كانت سعيدة بزواجه، وكذا أعمامه، فقد ظنَّت أمه أنه ربما بعد الزواج سوف يتلهى وينصرف عن السياسة، أو لعلَّها أملت أن ينجب لها ذات يومٍ البنين والبنات ويعوضها عن افتقادها إلى عائلة كبيرة بعد وفاة زوجها.

في ليلة زفافنا، جاءتنا الضربة من حيث لا نحتسب، فقد اكتشفنا أنني لست بكرًا، ولم نتشرف برؤية قطرات الدم الحمراء المقدسة، والتي كنا نتوقعها عند لقائنا الجسدي الأول، لتدلل على أني طاهرة بتول.

ظللنا فترة ممددين في الفراش إلى جانب بعضنا البعض لا ننطق وقد أخرستنا الصدمة، نتطلع في الظلام إلى دولاب الملابس ذي الضلفتين المواجه لسريرنا، والذي بدا كحائط قاتم بمواجهتنا، شعرت وكأن صاعقة انقضت علينا من السماء، كانت صدمتي لا تقل عن صدمة حسام. بعد فترة نطق بصوت منكسر مخنوق:

- معنى ذلك هو أنكِ عرفتِ واحدًا قبل مني، وكلامك كله عن كوني أول رجل في حياتك لا أساس له من الصحة.

قلت بغضبٍ واندهاش:

- طبعًا أنت أول شخص في حياتي.. أنا لا أكذب عليك.

مدَّ يده، وضغط على زِر الأباجورة الموضوعة على الكومودينو بجوار السرير، ثم قام ليغادر الغرفة، بعد أن دسَّ يده بجيب جاكتة الفرح الملقاة على كرسي التسريحة فوق فستان الزفاف الأبيض. التقط علبة السجائر وسار خطواتٍ باتجاه شرفة الحجرة الصغيرة المطلة على الغيطان.

بقيت فترة متخشبة في مكاني على السرير، عاجزة عن الحركة تمامًا، بينما عرق غزير يتصبَّب من جبهتي وكلّ رأسي، رحت أعصر ذهني محاولة استعادة ذاكرتي، وقد هيمن عليَّ شعورٌ مريرٌ بأنني سرقت شخصًا، أو قتلته، ساءلت نفسي محاولة التذكر: هل مسَّني شخصٌ آخر في حياتي قبل حسام؟ هل اعتدى أحدهم عليَّ دون أن أدري يومًا ما في طفولتي البعيدة؟ رحت أقلب سريعًا في صفحات حياتي التي تجاوزت سنونها الثالثة والعشرين قليلًا. حاولت تذكُّر طفولتي الأولى، مراهقتي، محاولة مدَّ حبل الذاكرة لأبعد ما أستطيع، وأتوغل بدروبها الضبابية اللا مرئية إلا لمامًا. أنا وأختي لم تلمس أعضاءنا التناسلية إلا يدُ تلك المرأة العجوز البغيضة التي لن أنساها ما حييت وهي تقوم بختاننا عندما كنت في الخامسة من عمري، وأختي في حوالي التاسعة. لا

أتذكر أننا خرجنا ونحن صغار يومًا إلا بصحبة أبي وأمي.. أقاربهما كانوا يزورونا لمامًا، لأنهم يعيشون بعيدًا بإحدى بلدات الصعيد. هل اغتصبني أحدهم ذات يوم بعد أن غيبني عن الوعي؟ كدت أقهقه ضاحكة بينما أتذكر مشاهد الاغتصاب بأفلام السينما المصرية، فتشت في أبناء الجيران واحدًا واحدًا، حتى زملائي وأنا تلميذة صغيرة بالمدرسة الابتدائية المشتركة للذكور والإناث، رحت أستعيد صورهم بقدر المستطاع، وكل ما تذكرتُه هو أنني كنت أشاركهم اللعب وقت الفسحة، نلعب "استغماية" أو "طيارين"، أو "عسكر وحرامية"، وكنت أضربهم أحيانًا وأقابل سلوكهم الخشن بخشونة ملائمة.

الإجابة خلال شريط الذكريات هذا كانت دائمًا: لا.. لا.. لا يوجد مَن مسَّني أو لمسَني أو اقترب من ذلك العضو المحرَّم في أي يوم من الأيام، بالفعل كان مُحرَّمًا علينا حتى أن نسميه باسمه، كما نسمي باقي الأشياء في هذا العالم، وأمرتني أمي ومنذ أن كنت صغيرة وكذلك أختي أن نمنحه اسمًا آخر، كتلك الأسماء السرية الحركية التي يطلقها حسام على بعضِ زملائه الفلسطينيين بالجامعة، ويقول إنها ليست أسماءهم الحقيقية، لأنهم في منظمات سرية مسلحة ضد العدو الإسرائيلي، كنا نسميه: علبة اللولي. أجل علبة ذلك الدر العزيز المخفي والمكنون بأعماق البحر، ولا يُتوصل إليه ويُمتلك إلا بعد بذل الغالي والنفيس وشق الأنفس، تلك الأنفس التي قد تزهق أرواحها في رحلة البحث عنه داخل المياه المظلمة.

كانت أوامر أمي المشددة لي ولأختي دائمًا هي ألا نلمس علبة اللولي هذه، ولا نقترب منها بأناملنا مهما كان الأمر، فهي الجزء الأغلى والأثمن في جسد البنت، وكينونة أي بنت تتعلق بذلك الجزء من الجسد تحديدًا، فهو موطن العفة والشرف والأخلاق، وطهارته أهم من طهارة أي شيء آخر في الفتاة حتى القلب، كما أن عفته أهم من عفة النفس.

ملابسنا الداخلية، وتحديدًا اللباس الذي يخفي علبة اللولي الثمينة ويحافظ عليها، يجب أن يكون في آخر حبل داخلي من حبال الغسيل عندما ننشره ليجف، ويجب أن يتوارى وراء الملايات ومفارش السراير وفوط الحمام والبشاكير وغيرها عند نشر الملابس المغسولة، فلا يرى كائنًا مَن كان تلك القِطَع الداخلية الخطيرة بينما يطوِّحها الهواء وتلسعها حرارة الشمس، وكانت تشدِّد علينا قبل ذلك كله بضرورة غسل اللباس المسؤول عن علبة اللولي وقتَ الاستحمام لأنه نجس، ولا يجوز غسل ذلك المنبوذ مع بقية قطع الملابس الأخرى حتى لا ينجسها.

كنت أفكر متسائلة حينما كنت طفلة صغيرة: كيف يكون اللباس نجسًا بينما تقبع بداخله أغلى وأنفس قطعة في الجسد كله؟ كنت بعد تمعُّن وتفكير لا أجد إلا إجابة واحدة: كلام فارغ. فكرت بمرارة وأنا ما زلت على السرير ممدة: جسدي الصغير.. جسدي الضئيل، لم ألاحظ يومًا أنه كان ملفتًا أو مثيرًا للجنس الآخر، حتى الإناث كنت كثيرًا ما ألاحظ نظرات مشفقة تطل من عيونهن عليه، بينما أصادف إحداهن في الطريق، أو بأي مكانٍ كان. في زمن مراهقتي، صديقات أمي كن ينعتنّني بـ "عصاية غلية الغسيل"، أو يُسدين النصيحة لأمي ساخرات: حطيها في الردة يومين حتى تستوي وتكبر، ثم يقلن لي: همي واشطري وكلي وخلي جسمك يكبر ويتدور ويتلف.

كففت دموعي المتساقطة، وعدلت على جسدي قميص نومي الأبيض الذي لم يتزين حتى ببقعة وردية حمراء واحدة، وذهبت إلى حيث كان حسام واقفًا بالشرفة يمتص أنفاسًا طويلة من سيجارته وينفثها في الفراغ الأسود المسربل للحقول بدكنة يتصاعد منها صفير الجنادب وقد هيجتها رطوبة شهر أغسطس الخانقة، وتخالطت بنقيق صاخب لعلاجيم الضفادع الطالبة للجماع.

اقتربت منه هامسة برجاء:

- الموضوع غريب فعلًا.. أنا في حيرة ومتلخبطة، لكن يا حسام، وأنا قلت لك ألف مرة، ومن بداية علاقتنا إنك أول رجل في حياتي، وعمري ما كنت في علاقة مع جنس مخلوق قبلك، سواء علاقة جسدية أو غير جسدية. صدقني. أرجوك.

كان من المفترض أن نسافر إلى الإسكندرية في مساء اليوم التالي لليلتنا هذه، بعد أن حصل حسام على إجازة لمدة أسبوع من شركة المقاولات، صمت حسام طويلًا ولم يعلق على ما قلت. لم يجادلني أو يناقشني، بل ظلَّ يواصل التدخين، لكنه في النهاية أعلن بانسحاق:

- نلغي إسكندرية بكرة أفضل.

لم أرد.. انسحبت إلى الداخل مرة أخرى.

أعترف بأن حسام ظلَّ يعاملني بودٍّ طوال الأيام التالية، ربما لأن الصدمة أربكته، وربما لأنه عاجز عن تحديد موقف معين مما جرى ليلة زفافنا، بالنسبة لي، فالحقيقة هي أنني لم أكن مشغولة كثيرًا بموقف حسام مني، أو بما يعانيه نفسيًّا، فقط كنت مشغولة ومهمومة بكيفية حدوث ذلك، وكيف غابت قطرات الدم المأمولة وخذلت جسدي. قطرات الدم التي ستفقدني لقب "آنسة"، أو "عذراء"، أو "بنت بنوت"، وتمنحني اللقب الأهم: سيدة.

وكلما فكرت في قطرات الدم هذه كنت أغضب وأغتاظ، فهذه القطرات تصنفني كما تصنف فصائل الحيوانات: أنثى بِكر طالما هي مختبئة وملتصقة بجسدي، وبمجرد ظهورها أتحول إلى (سيدة / حرم / عيال) كما اعتاد بعض الناس نعت زوجاتهم.

معرفتي الجنسية كانت شحيحة جدًّا. في بيتنا، لم أرَ أبي يغازل أمي في أي يوم من الأيام، لم أرَه يحتضنها أو يقبِّلها أو يلامسها أمامي أنا وأختي. في طفولتي عندما سألت سؤال الطفولة الأولى الخالد: من أين جئت؟ تلقيت إجابة مراوغة عجيبة: في كيس الردة لأني سمراء على عكس أختي البيضاء التي عثروا عليها في كيس الدقيق. في إجابة أخرى وعندما كبرت قليلًا: وجدناك تبكي جنب الجامع، وهذه الإجابة الأخيرة طالما آلمتني وأخافتني كثيرًا. لا أذكر أنني رأيت أبي وأمي ممددين على فراشهما بغرفة النوم إلا وظهراهما متقابلان، ولا تنطبع بذاكرتي أي مشاهد حميمة لهما. أظن أن علاقتهما الجنسية انتهت في وقت مبكر من طفولتي الأولى، وبعد إنجابي أنا وأختي، وكأنهما أنجزا بنجاح واجب الحفاظ على النوع البشري.

في المدرسة لم أتلقَّ أيَّ تربية جنسية أو غير جنسية رغم أن الوزارة اسمها "التربية والتعليم"، ولسوء حظي كنت طالبة بالقسم الأدبي وليس القسم العلمي، فلم أدرس مادة الأحياء التي تدرس لطلاب العلمي، وببعض مقرراتها دراسة الجهاز التناسلي للإنسان، ووقت الدرس المخصَّص لذلك، كانت طالبات عديدات تتغيب عنه، لأن من يقوم بتدريسه أستاذ، رغم كونه مِن المدرسين العجائز المخضرمين بالمدرسة.

كل هذه الأفكار، ظلت تعبر رأسي طيلة الوقت في مشاهد متكررة سريعة، وكأنها زوابع رياح أو أعاصير محيطات. كنت كلما سكنت إلى نفسي وأفكر في هذه القطرات الدموية البغيضة أستشعر أنها سارقة فرحي وبهجتي، وصفو حياتي مع الإنسان الذي أحببته وأعاد تكويني وتشكيلي، لأكون ما أنا عليه الآن: فتاة واعية، حرة، قادرة على التعامل مع الحياة بكامل إرادتنا وخياراتها الخاصة.

في اليوم التالي لزفافنا، هاتفَ حسام أبي في التليفون، وأبلغه أننا لن نذهب إلى الإسكندرية، لأنه مصاب بإسهالٍ شديدٍ وحرارته مرتفعة قليلًا، جاء أبي وأمي وأختي لزيارتنا، وعندما سألتني أمي وهي تبتسم كله تمام، جاوبتها بسرعة: كله تمام. ثم غيرت الموضوع فقلت:

- الشقة خانقة خالص، رغم أنها مفتوحة على الغيطان.

رغم ما حدث، ظل حسام يضاجعني بنهمٍ كلَّ ليلة. كان في الظلام يبدو كعاشق واقع لشوشته في الغرام، أما في الصباح فيطالعني بوجه حائر حزين تطلُّ منه نظرات باردة، وملامح متيبسة، ألمح خلفها تساؤلات واتهامات شتى. بات عصبيًّا لا يكلمني إلا إذا كلمته، وردوده قصيرة مقتضبة، وعندما نتناول وجبة الغداء معًا بعد عودته من شركة المقاولات، كان ينام إلى ما بعد وقت المغرب، وخلال ذلك لم ألمحه مرة يبتسم أو رأيته يضحك.

زارتني هدى بعد ذلك بأيام، لما أخبرتها أختي أننا لم نسافر إلى الإسكندرية. أهدتني أباجورة بإضاءة حمراء، قاعدتها على هيئة روميو وجوليت متعانقين وهما يرقصان. همست لي وهي تضحك: النور الأحمر حلو في تسخين الجو وقت اللزوم.

ترددت كثيرًا قبل أن أحكي لها ما جرى، لكني انهرت وبحت لها في النهاية، فالبركان المكبوت بداخلي بات على وشك الانفجار، وقد انفجر بالفعل، وأنا أسرد لها تفاصيل ما حدث، فرحت أبكي بحرقة، وأنا أعلن لها حقيقة خوفي من أن أفقد حسام.

هدى علاقتها بالجنس مختلفة كثيرًا عني؛ فهي من أسرة ريفية الأصول، كبيرة العدد، فلها ثمانية إخوة وأخوات، تزوج أكثرهم وأنجبوا، والحوارات عن الجنس من الأمور العادية ببيتهم. حكت لي مرة عن أختها الوسطى التي ترغب بالطلاق، لأن زوجها يصر على مضاجعتها كل ليلة، وعندما ترفض؛ لأنها تكون متعبة في الليل بعد خدمة ورعاية أبنائها الأربعة، فإنه يغضب ويضربها، ويهددها بأنه سوف يتزوج بواحدة أخرى.

هدى وبعد أن هدأتني كثيرًا، قالت وهي تبتسم:

- لو كنت وسط الفلاحين، كان الموضوع انتهى ببساطة. في بلدنا عندهم طرق جهنمية مخصوصة لمواقف من النوع الغريب كحالتك. يعني قماشة بدم أرنب أو حمامة مذبوحة البنت تشيلها وتخفيها في العتمة، ولما يحصل الموضوع تطلعها بسرعة، وطبعًا العريس في وضع منشغل ومرتبك، ولا من شاف ولا مِن دري. لكن عمومًا اسألي أحد الدكاترة يمكن تكون حصلت لك حادثة في طفولتك وأنتِ ناسية، أو خلقة ربنا لكِ إنك تكوني عذراء، ثم أضافت وهي تبتسم:

- يعني ستنا العذراء.

بقيت أيامًا في حالة من الحيرة والتردد، لا أستقر على رأي:

هل أفاتح حسام في ضرورة الذهاب إلى طبيب، أو أتجاهل نصيحة هدى، وأصبر حتى يتضح

ما ينوي هو أن يفعله؟ كنت كمن في حالة انعدام الوزن، لا أدري كيف أتصرف، أخشى أن يثور وينفجر بوجهي غاضبًا، أو يتطور الموقف لما هو أسوأ من ذلك. في قرارة نفسي، خوفي الحقيقي هو أن تنتهي علاقتنا وأفقد حسام.

ذات مساء، وبينما كنا نجلس نحتسي كوبين من الشاي، وقد بدا لي أقل توترًا، وفي حالة من الاسترخاء قلت:

- بصراحة يا حسام، أتمنى إننا نروح لدكتور نسأله ويفيدنا برأيه، ونحسم الأمر.

ضغط على أضراسه بينما تحركت تفاحة آدم برقبته صعودًا وهبوطًا بحركات سريعة، وقبل أن تنفرج شفتاه عن ابتسامة ساخرة ويقول:

- يا حلاوة.. يا حلاوة.. الحكاية ناقصها دكتور يفتي برأيه.

سكتُّ ولم أعلق، ولكن بعد جدلٍ، وأخْذٍ وردٍّ على مدى أيام أخرى، وافق حسام في النهاية على الذهاب إلى طبيب.

يوم ذهابنا إلى الطبيب كان يومًا لا يُنسى؛ لأنه كان يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

كانت فرحة الناس في كل مكان.. أغانٍ وطنية يبثها الراديو دون توقف، زمامير السيارات تتعالى بينما تتناغم بإيقاعات الفرح.. كمساري الأتوبيس الذي ركبناه من الهرم لميدان التحرير، ظلَّ يلح على السائق كلما توقف في محطة ويقول:

- زمَّر.. زمَّر يا حسين وخلي الناس تفرح، يللا يا صهاينة يا ولاد الحرام. وقعَّنا خلاص خط بارليف.

وقتها، تلوَّن كل شيء بالفرح، وكنت مذهولة لأن هذه المعجزة حدثت بالفعل، وأن جيشنا قد عبَر بعد أن أسقط خط بارليف. وبينما كنا نبتعد عن الأتوبيس، ونعبُر الميدان باتجاه وسط البلد، قفزت إلى رأسي مشاهد حلم كنت قد حلمته ليلة أمس، إذ رأيت نفسي مع طنط لويزة في مولد العذراء، بينما حسام يقف بعيدًا، ويلوح بسوط كذلك السوط الذي كان يحمله عسكري الهجانة وهو راكب على حصان يوم المظاهرات سنة ١٩٦٨.

حماسي وابتهاجي الشديد في تلك اللحظات، لأننا نحارب وننتصر، ضاعَلَ بعيني مشكلة قطرات الدم العنيدة التي أبت السقوط من جسدي، وباتت لي كمسألة تافهة وشديدة السخف، لا يجب الانشغال بها، أو إعطاؤها كل ذلك الحيز الكبير من الاهتمام، فها هو دم يسفح على خطوط النار

وفي سبيل قضية حقيقية وهي قضية الوطن.

عند ميدان طلعت حرب، قلت لحسام فجأة:

- أنا فرحانة جدًّا.. يلَّا نأجل مرواحة الدكتور، ونشتري فشار ونروح نشوف فيلم "الطلقة ٤١"، موجود في سينما "أوديون".. نقدر نلحق حفلة الساعة ٣.

رمقني حسام بنظرة لن أنساها مدى حياتي كلها، إذ كانت مزيجًا من الغضب والسخرية والاحتقار، نظرة جعلتني أخاف، ويغمرني شعورٌ بأن الرجل الذي أسير معه الآن هو كائن غريب تمامًا عني، وإنسان لا أعرفه، وليس ذلك الحسام الذي أعرفه وأعشقه.

قال:

- واضح إنك مصدقة حكاية العبور والنصر. الموضوع في الحقيقة عبارة عن سيناريو محكم مرسوم بدقة مع الأمريكان، ونهايته السعيدة لا بُدَّ أن تكون لصالح إسرائيل. "السادات" مصيبة وحلَّت بمصر.

اغتظت من كلامه، وقلت لنفسي: ما هذا التعالي وكل تلك الغطرسة؟! الجيش عبَر القناة فعلًا، وخط بارليف تهاوى وكأنه باكو بسكويت "أيكا" أبو تعريفة، وحضرته ينظر ويقول سيناريو مرسوم. سكتُّ، بينما شعرت بقسوة يده القابضة على كفي ونحن ننتقل إلى رصيف الناحية الأخرى من الشارع، لكني لم أتمالك نفسي من الضيق، فقلت في النهاية وأنا أزفر بمرارة:

- ربنا يحمي كل شبابنا في سينا، ويرجعهم سالمين منصورين.

كنت قد أصررت على أن يختار هو بنفسه طبيب أمراض النساء الذي سنستشيره، حتى أبعد عن نفسي شُبهة التواطؤ مع طبيب، فقد كانت معدلات الشك والريبة تتزايد يومًا بعد آخر لديه، كان يتضح ذلك في بعض تصرفاته الصغيرة التي لا تُلحظ، فإذا جاءت بالصدفة سيرة أحد الرجال من أقاربي ينعته بسرعة بأنه شخص "سخيف وشديد الغباء"، ومرة أخرى طلبَ من الشاب العامل مع المكوجي، عندما أتى ببعض فساتيني وبدلته ألا يأتي بالملابس المكوية إلا في المساء، وطبعًا حتى يكون هو متواجدًا بالبيت، وحتى بعض أصدقائه وزملائه المقربين من أيام الجامعة، والذين كانوا ما زالوا على علاقة به، ويزورونا بالبيت أحيانًا، بات يلتقيهم بعيدًا عني، ويتجاهل سؤالي عنهم أو رغبتي في دعوتهم إلى العشاء، كما اعتدنا أن نفعل عادة.

الغريب أن حسام اختار طبيبًا عجوزًا ملتحيًا، وخلال ذاك الزمان، أي بداية السبعينيات

و١٩٧٣، لم يكن هناك رجال ملتحون كثيرًا، الرجل كان استشاريًّا وزميل كلية الجراحين بواحدة من الجامعات الإنجليزية كما هو مكتوب على اليافطة النحاسية المعلَّقة على باب العيادة. الطبيب بدا لطيفًا ووقورًا بالفعل. قال بعد الكشف إن غشاء بكارتي كان ضعيفًا، وواهيًا جدًّا، وربما تمزَّق بسبب حركة أو جهد عنيف، في وقتٍ من الأوقات دون أن أشعر به، وربما جرى ذلك خلال دورتي الشهرية، فلم ألحظ ذلك، ثم أخذ يشرح لنا أنواع أغشية البكارة واختلافها، لكني لم أتابعه جيدًا، فقد كان شعوري بالارتياح، وصدور الحكم ببراءتي أقوى من أن تتابع أذناي ما يقول.

الرجل الدمث، الطيب حقًّا، أخذ يلقي علينا موعظة قصيرة عن التراحم بين الأزواج، والمودة التي هي أساسُ العيش المشترك، وأن الغشاء، أو هذه القطعة الجلدية الواهية لا يجب أن تعكِّر صفو حياتنا، وأن هناك حالاتٍ غريبةً عجيبةً مرت عليه "ياما" بخصوص الغشاء، ثم ابتسم وهو يمد يده مصافحًا لنغادر وهو يقول:

- المثل قال: كل شيء جائز حتى نكاح العجائز.

استرحت، وقد سقط ذلك الحجر الثقيل الجاثم على صدري، بعدما ظلَّ يخنقني ويصادر أنفاسي.

حسام علَّق تعليقًا وحيدًا فاترًا:

- دكتور ومُصلح اجتماعي عاوز يهدي النفوس.

الشهور التي تلت زيارتنا لطبيب مَثَّل "نكاح العجائز"، أتت بمتغيرات جديدة في حياتنا. كنا قبل الزواج قد اتفقنا على أننا لن ننجب أطفالًا قبل مرور سنتين على زواجنا، أكون خلالهما قد اشتغلت وعرفت رأسي من رجلي كما يقولون، وأن نرتب حياتنا قليلًا حتى نكون مستعدين ماديًّا ونفسيًّا لإنجاب طفل، وأن نكون بلا التزامات أو قيود لبعض الوقت، لكن حسام ذات صباح وبينما كان يتأهب للخروج للعمل اقترح وأنا أكوي له قميصًا (كنا توفيرًا للفلوس نكوي القمصان والبلوزات في البيت) أن أتوقف عن تناول حبوب منع الحمل، لأننا يجب أن ننجب طفلًا (يملأ علينا البيت) هكذا قال. جادلته كثيرًا، محاولة إقناعه بأن دخلنا ما زال محدودًا، والطفل ستكون له أعباء مادية كبيرة، لكني في النهاية وافقته لأني لم أكن أرغب في إثارة مشاكل وخلافات بيننا، وفسرت إصراره على الإنجاب بأنه محاولة لتجاوُز المشكلة إياها، واستعادة الود القديم المفقود بيننا، وتلك الثقة التي وئدت في ليلتنا الأولى، وقد وافقت في النهاية ربما لأنني بدوري أريد إثبات استمرار حبي ووفائي له، وهكذا ألقيت بشريط منع الحمل المتبقي لأستخدمه في أيام الشهر في علبة الزبالة.

مرت شهورٌ خمسة بعد ذلك، دون حدوث الحمل المرتقب. جُنَّ جنونه، وتوترت العلاقة بيننا مرة أخرى، بعد أن لانت وتحسنت لفترة من الوقت.

ذهبنا إلى الطبيب من جديد، فحصني جيدًا، وكأنه يفحص دجاجة لا تبيض، وكانت المفاجأة هي أن جهازي التناسلي سليمٌ تمامًا، ولا توجد موانع طبية تمنعه من حمل عشرة بطون وأكثر، وأن يكون معمل تفريخ على أعلى مستوى.

اقترح الطبيب على حسام أن يعرض نفسه على طبيب عقم وأمراض تناسلية، وإذا كان كل شيء على ما يرام، فعلينا التحلي بالصبر والتريث حتى يحدث الحدث السعيد الذي نتمناه.

رفض حسام الأخذ بنصيحة الطبيب، وإجراء كشفٍ على نفسه، واقترح أن نصبر بعض الوقت، لكني وبَعدَ زيارة الطبيب مرة أخرى بدأت الفكرة تحلو بعيني كما يقولون، وصرت متهيأة نفسيًّا وراغبة في أن أحمل وأصير أمًّا أحمل طفلًا بين ذراعيَّ لإرضاعه، وربما ذلك التحول النفسي جرى على نحو لا شعوري، إذ إن الطفل سوف يعيد وصل الحبل المتين الرابط بيني وبين حسام، ويقوِّي العلاقة بيننا، مما يجعله يتخطى عقدة بقع الدم الحمراء.

في النهاية، وبعد إلحاح ومحايلة، وطبطبة ومِدَادية بالبلدي، ذهبَ حسام إلى الطبيب، فطلب منه تحاليل وأشعات وكل ما يلزم لتحديد حالته بدقة، ولكن بعد الفحص جاءت النتيجة حاسمة: حسام محصوله النووي ضعيف ولا يرقى إلى مستوى التخصيب والحفاظ على النوع البشري.

صدمت، وحزنت جدًّا في بداية الأمر، لكن سرعان ما استعدت نفسي ورباطة جأشي مقررة بحزم أنني لن أتخلى عن حسام مهما كان الأمر، فهذا قدري في النهاية، ومشيئة الله في ألا يكون بيننا طفل. وتصورت، وكما كنت أشاهد في أفلام السينما المصرية، أنه سوف يخيرني بين الانفصال والاستمرار معه دون إنجاب، ورحت أرسم سيناريو مفعمًا بالرومانسية، ومشاهد عواطف ودموع، لننتهي النهاية السعيدة، بأن أعلن، بينما أعانقه وأرتمي على صدره، أنني لن أتركه ما حييت، ولن أعيش بدونه أبدًا، ثم نستمر في حياتنا الزوجية بعد ذلك في تبات ونبات، دون أن نخلف صبيانًا أو بنات.

حسام، وفي الواقع لم يقم بأي مشهد مما تخيلت وتمنيت، لكنه آثر المراوغة والمكابرة، وقال إن صديقًا له وزميلًا بشركة المقاولات أشار عليه بالذهاب إلى فرنسا، فهناك الطب متقدم جدًّا في هذه الأمور، وأضاف: أنه يفكر جديًّا في ذلك حتى لو تطلب الأمر أن يستدين نقودًا لأجل العلاج

والسفر.

لم يستلف حسام، ولم يسافر إلى فرنسا، بل فاجأني ذات يوم برغبته في الذهاب برحلة معًا إلى مدينة بورسعيد بعد أن صارت مدينة حرة، ليشتري لنا ملابس مستوردة منها.

خلال ذلك الوقت، كنت قد تسلمت عملي الحكومي كمدرسة تربية بدنية في واحدة من مدارس محافظة الجيزة.

١٩٧٧

المتغيرات في حياتنا باتت سريعة ومتلاحقة، فكلما زادت شراهة الناس للطوب والحديد المسلح والأسمنت، وعلت بنايات وأبراج جديدة، كان حسام يصعد ويندفع إلى أعلى من خلال عمله كمهندس بشركة المقاولات العامة. كانت أزمة الإسكان تتفاقم يومًا بعد يوم، مع الزيادة السكانية الهمجية، وحمى النزوح إلى بلاد النفط وجلب أمواله التي قلبت الحياة رأسًا على عقب، ليصبح شعار الجميع: عش واستهلك على طريقة أهل النفط وحائزي أمواله وإلا فأنت الميت الحي.

المدن الكبرى، وعلى رأسها القاهرة، صارت وكأنها مدن تدك كل يوم بالقنابل، فمعاول الهدم للقصور والسرايات والفيلات، وحتى البيوت الصغيرة الجميلة، لا تتوقف، وكانت تجري على قدم وساقٍ كل يوم تقريبًا، القاهرة بأحيائها القديمة الراقية بدت وكأنها مدينة تحت الإنشاء. حي الهرم نفسه، اختفت منه الترعة الممتدة والتي كانت تمد الزراعات المترامية حولها بالماء، تحولت إلى شارع، والأفق الأخضر السارح أمام شقتنا بدأ يختفي تدريجيًّا، لتحل محله بنايات وعمارات عشوائية شديدة القبح، وتم وأد طمي النيل المترسب عبر آلاف السنين بكل ذلك الأسمنت والحديد المتزايد هنا وهناك.

الطريف، أن ترعة الماء المأسوف عليها تمت تسميتها باسم ملك من ملوك النفط: فيصل.

شارع سنان بالزيتون، والمتعامد على شارع طومان باي بمعلمه التاريخي وهو مدرسة نوتردام ديزابوتر للراهبات، ذهبت سراياته القديمة الجميلة بطرزها المعمارية المميزة وحدائقها الغناء، لتحل محلها كتل أسمنتية ضخمة شديدة القبح، تحتل طوابقها الأرضية محلات العصير والكشري، والملابس الرخيصة المستوردة من الصين وتايوان، وما طال شارع سنان طال شارع طومان باي ذاته، فلم يتبق من معالمه القديمة إلا قصر الطاهرة، وقسم الشرطة، ثم عمارة الإيموبيليا التي أخنى عليها الدهر وفقدت رونقها القديم.

صار حسام وأمثاله من المهندسين ومقاولي البناء وتجار الحديد المسلح والأسمنت والطوب، هم سادة المرحلة وملوكها.

العلاقات القديمة بزملاء الجامعة، المطالبين بتحرير سيناء وحافظي أشعار ثورية من نوع "المجد لمن قالوا لا في وجه من قالوا نعم" للشاعر أمل دنقل، العلاقة بهم بدأت تبهت وتضمحل، وحسام يسحب نفسه منها تدريجيًّا بدعوى قلة الوقت، ومصاعب العمل، بينما تتوطد علاقاته بزملاء شركة المقاولات، ويتزايد تداخُل المصالح معهم، أما الاهتمام بالقراءة، وخصوصًا الأدب، فبات شبه معدوم، وندُر التحمس له.

على المستوى الشكلي، بدأ الكرش الصغير ينمو ويتكور أكثر لدرجة أن البنطلون صار لا يمكن ارتداؤه إلا بحزام يقيده حتى يستقر عند الوسط، رحلات بورسعيد باتت لازمة حياتية، بين الحين والحين، ويقتنص خلالها حسام بزات وقمصان وعطورًا رجالية ذات ماركات وعلامات تجارية شهيرة. في إحدى المرات، فوجئت به يشتري بيجامة مستوردة من بورسعيد، صدمت، وقلت له مستنكرة بعد اكتشافي ثمنها المرتفع، وقماشها المصنوع من الألياف الصناعية:

- ومالها بيجامات عُمر أفندي وشركة بيع المصنوعات، قطنها ناعم حرير، يتشرب العرق أيام زَمتِة الصيف، وقماشها لين حِنين على البدن وقت النوم.

بدأ يطيل شعره قليلًا، وضمن هوسه المتزايد بشراء كل جهاز كهربائي بكبس، اشترى سيشوارًا يفرد به خصلات شعره الخشن بعد أن تركه يطول قليلًا، مع الحرص على سوالف ممتدة بوجهه على طريقة الممثل السينمائي محمود ياسين في الأفلام، وكنت ما زلت أراه أحلى بشعره الخشن المفلفل، فهكذا كان عندما خفق قلبي له لأول مرة، لكنه حاول إقناعي: الشعر المتوضب شكله قيمة، ويخلي مظهر الرجل أشيك ولارج.

ككل نساء جيلي وقتها، كنت أرتدي عادة فساتين بأنصاف أكمام، طولها يستقر عند منتصف الركبة، أو تحتها بقليل. أركب أتوبيسات النقل العام، والقطار، والمترو مثل جميع البنات والسيدات، دون أن يكون ذلك أمرًا ملفتًا أو غير مألوف. في المناسبات كالأفراح وغيرها، كنت أرتدي فساتين سواريه عارية الذراعين وبديكولتيهات مفتوحة بعض الشيء. يوم خطوبة هدى صديقتي لمدرب تنس بنادي هليوليدو، فوجئت بحسام يطلب مني، ونحن نستعد للذهاب إلى الحفل الصغير، والذي كان سوف يقام بسطح بيت عمها الواسع بحدائق القبة، أن أغطي صدري

وذراعي، بأي شالٍ أو إيشارب، لأن ديكولتيه الفستان محفور وغويط (وطالع منه كل صدري) كما قال بالحرف.

تعجبت جدًّا من (طالع منه كل صدري)، فقبل تعارفنا وبعده، وعلى مدى علاقتنا وزواجنا، كنت أرتدي ملابس مفتوحة الصدر. تساءلت بيني وبين نفسي: ما هذا الكلام؟ يعني هو لابس بدلة لونها لبني سماوي فوق قميص أحمر فاقع، وفاتح صدر القميص لحد قرب سُرته، ومبين شعر صدره الأسود المكتكت، ويقول لي صدري طالع من فتحة رقبة الفستان؟ كدت أن أغضب وأناقشه مبينة له التناقض بين كلامه وانتقاده للبسي، وبين لبسه وطريقته في التعامل مع الهدوم، لكني آثرت السكوت، وابتلاع الموضوع، فأذعنت على مضض وقلت: رأيك أن الديكولتيه واسع.. طيب ثم سحبت شالًا من الحرير الأسود بشراشيب وورود حمراء، كانت قد أهدته لي طنط "أتينا" بمناسبة زواجي ورميت الشال على كتفيَّ ليسقط منه جزء على صدري ويخفي كل ما كشفته فتحة الفستان.

وفي الحقيقة، صدري كان ما زال صغيرًا كما هو، ويشبه صدر فتاة في بداية سن المراهقة، رغم أني سمنت قليلًا بعد الزواج، وحسب خبرتي وقناعتي المزمنة فهذا الصدر لم يهتم به كائن مَن كان، حتى لو كان طفلًا في مهده يتوق لرضعة تُسكت جوعه وتُلهيه.

كنا وبمرور الوقت، ومع تزايد دخل حسام من شركة المقاولات بسبب المكافآت المتكررة، والأرباح السنوية العالية التي توزع على العاملين، إضافة إلى الزيادات المتصاعدة لمرتبه، نُحسِّن في أوضاعنا المعيشية، وأثاث البيت.. غيرنا بوتجاز المصانع الحربية المسطِّح بآخر له فرن وأربع شعلات، مما جعل حسام يبتهج عندما أفاجئه بعمل كيكة أو صينية مكرونة بشامل.

اشترينا سجادًا للأرضيات بدلًا من الكليمين الأسيوطي اللذين اشترتهما أمي لي وقت الزواج، كما بات للشرفة والشبابيك ستائر كيرتون بيج بزهور زرقاء رقيقة. ورغم التغير المستمر في أوضاعنا المعيشية تجاه الأفضل، إلا أن حسام لم يكن راضيًا عن حياتنا، وكان رأيه أن الهرم أصبح زبالة ولا يصلح للسكن، وفي أحد الأيام فاتحني برغبته في الانتقال إلى شقة أوسع بحيٍّ أرقى، واقترح السكن بمدينة نصر شرق القاهرة (لأن المنطقة جديدة ومستقبلها خطير) وفقًا لكلامه.

لم أكن أمانع في العيش والسكن في شقة أوسع، فشقتنا بالهرم داخل بناية عشوائية ريفية الطابع، ومطبخها صغير، وبات أكثر ضيقًا بوجود البوتجاز الجديد، لكني أحببت هذه الشقة التي كانت أول

سقف ضمَّني تحته مع حسام، كما أحببت حي الهرم، رغم كل ما أصابه من تحولات، فهو ما زال لا يفتقد إلى العلاقات الطيبة بين الناس كحي الزيتون الذي تربيت فيه، وناسه هم خليط من أهل الريف والمدينة، لذلك شهقت بشكل عفوي بينما أرد عليه:

- مدينة نصر.. يا خبر.. منطقة بعيدة خالص ومقطوعة.

كانت مدينة نصر بعيدة فعلًا عن الهرم الذي تقع فيه المدرسة التي أعمل فيها، والانتقال إليها معناه ركوب مواصلات وأكثر من أتوبيس في الذهاب والإياب، والتورط في مشاكل ومعاناة الزحام، اقترحت المهندسين أو الدقي أو العجوزة فهي أحياء قريبة من الهرم، لكنه اعترض بحجة أن الإيجارات بمدينة نصر أقل عنها بهذه المناطق، وأن المعروض بها من الشقق يتيح لنا اختيارًا أفضل من حيث المساحات.

وانتقلنا إلى مدينة نصر.

رغم أن عبور الجيش في أكتوبر وعودة سيناء قد طمأن الناس، وأعاد لهم الثقة المفقودة في الذات، وهي الثقة التي غابت منذ هزيمة ١٩٦٧، إلا أن المتغيرات السريعة على مستوى الحياة، جعلتهم يشعرون وكأن الفترة الناصرية قد ولَّت وأُسدل الستار عليها، وبدأت تتصاعد معارضة للسادات، لأسباب عديدة. شركات القطاع العام بدأت تباع واحدة وراء أخرى، على طريقة راقصات الاستربتيز اللواتي يخلعن ملابسهن قطعة.. قطعة، وتم استيراد السلع من الخارج، وفتح باب جلب أي شيء حتى لو كان بالونات ومفرقعات، وأغشية بكارة جاهزة من الصين، تخالطت قيم الانفتاح الاقتصادي، الذي اتبعه السادات كسياسة يُسيِّر بها شؤون البلد اقتصاديًّا، مع قيم النفط، لتظهر ولأول مرة داخل المجتمع طبقة جديدة تمامًا تقدس الاستهلاك، وتكدس ثرواتها من النهب والسرقة والغش والتدليس. حسام زادت كراهيته للسادات أيضًا، لكن لأسباب باتت مختلفة وغريبة بنظري، فهو يرى الرجل ممثلًا ومنافقًا، ولا يطبِّق أي حرفٍ من كلامه عن دولة العلم والإيمان، التي طالما تشدق بها في خطبه ويتخذها شعارًا له، ثم أنه يشدِّد على ضرورة العودة إلى أخلاق القرية، وصوره تملأ الصحف والمجلات وهو يرتدي الجلابية الفلاحي، لكن كل ذلك من باب المنظرة ولفت الأنظار ليس إلا.

ظننت أنه يسخر من السادات في البداية، فأضَفتُ:

- ونسيت عبارته الشهيرة: كل واحد عاوز يعمل فلوس.. يعملها في عهدي.

فوجئت بجديته وهو يرد وكأنه واقف على منبر في مسجد:

- البلد في حالة انحلال أخلاقي كامل.. الكباريهات بطول شارع الهرم كله، والدعارة على عينك يا تاجر في المهندسين وشارع جامعة الدول العربية، والشقق المفروشة موجودة في أرقى شارع، وأحقر حارة، وهو يخطب ويقول دولة العلم والإيمان وأخلاق القرية.

على الإبياري رأيه أن الدين يجب أن يكون مادة نجاح ورسوب بالمدارس، وبجميع مراحل التعليم حتى الجامعة، وضروري إغلاق المحلات إجباريًّا وقت الصلاة، وكل الناس تترك كل شيء وتروح الجوامع وتصلي.

تساءلت بجدية لا تقل عن جديته:

- طيب.. افترض إن جراح فاتح بطن مريض، يترك بطنه مفتوحة، ويخرج مع دكتور البنج وطاقم التمريض للصلاة؟

نظر إليَّ باستخفاف ولم يجب، بل اقترح وهو يزفر بضيق أن أعد له شايًا ليشربه.

هناك مقولة فحواها: أن الإنسان إذا ردَّد اسم شخص ثلاث مرات في اليوم فهو واقعٌ بالضرورة تحت تأثير وسطوة هذا الشخص، سواء بالعشق أو بغيره من المسائل المؤثرة في الشعور واللا شعور، وعلي الإبياري طالما كان يردِّد حسام اسمه على الإفطار والغداء والعشاء، وما بينهما، فلقد بات هذا الرجل المثل الأعلى لحسام في كل شيء، فهو في رأيه نموذج ممتاز للمهندس الناجح والإنسان الفيلسوف، وثقافته الدينية عميقة جدًّا (لا تقولي يا عفت بنت الشاطئ ولا مصطفى محمود)، ولديه حلول لكل مشاكل البلد من قلب الدين ذاته، وقادر على وضع النقط فوق الحروف طوال الوقت.

علي الإبياري والذي كان لبانة في فم حسام ليلًا ونهارًا، لم أرَه إلا مرتين، مرة في بيتنا عندما دعاه حسام مع زوجته وابنه الصغير، وانطباعي عنه وقتها أنه شخصية مفتعلة عصابية نوعًا ما، فهو يتكلم وكأن وجهات نظره نهائية وغير قابلة للنقاش، قال إن مجانية التعليم أفسدت التعليم في مصر وجعلته متاحًا لكل من هبَّ ودبَّ، وأنه يجب العودة إلى تعليم كتاتيب المشايخ في القرى ليتعلم الأطفال منذ نشأتهم الأولى أصول الدين ولغة القرآن.

زوجته الحامل، رغم أن طفلها لم يتجاوز السنة وشهرين، بدت لي ريفية بعض الشيء، وملابسها تفتقد إلى الذوق والتناسق، مع كل الذهب الملتمع بقلادة صدرها، وإسورة معصمها

الكبيرة. تخرجت من كلية الزراعة بتقدير جيد جدًّا، لكنها لا تعمل، ظلت معظم الوقت صامتة، والحوار الوحيد الجاد بيننا كان بخصوص رغبتها في معرفة عمل صينية قرع العسل بالكريمة، وكنت قد قدمتها كنوع من التحلية بعد العشاء.

أما المرة الثانية، فكانت بعد أن ولدت زوجته، إذ أصر حسام أن نزورها ونبارك لها بالمستشفى - التي ستبقى بها لعدة أيام - لأن ولادتها كانت صعبة جدًّا، وتم إنقاذ حياتها بمعجزة، فهي تعاني من ضعف شديد بعضلة القلب؛ فاقترحت أن نذهب إلى شارع الصاغة بخان الخليلي، ونشتري للمولود دلاية ذهب خمسة وخميسة بخرزة فيروز، أو ما شاء الله مكتوبة ومعمولة بخط حلو، تتعلق بـ"دبوس على صدر النونو".

حسام ابتسم ابتسامة أغاظتني قليلًا، إذ شعرت أنها لا تَـخْـلُ من شبح سخريةٍ عندما رد بسرعة.

- خمسة وخميسة.. ها.. لازم نقدم لها هدية قيِّمة. رأيي ندخل عليها المستشفى بجنيه ذهب، وعلبة شوكولاتة معقولة.

لا أذكر أنني خبطت بيدي على صدري يومًا، مهما كان الأمر، لكن صدمة الجنيه الذهب جعلتني أفعل وأقول:

- يا خبر أسود.. جنيه ذهب..

جنيه ذهب لعيل في اللفة. عمري ما سمعت عنها ولا حصلت، العادة عند كل الناس حلق صغنن للبنت، وعليقة بدبوس تتشبك بصدر جلابية الولد.

جنيه ذهب.. يا سلام..

حَسَمَ النقاش وهو يثبت نظراته على أذنيَّ اللتان كانتا بلا حلق وهو يقول :-

- علي يستاهل كل خير وجمايله شيلاني من ساسي لراسي.

في نهاية العام ١٩٧٥ قرر حسام الاستقالة من شركة المقاولات، وتأسيس شركة مقاولات خاصة مع علي الإبياري.

سرعان ما بدأت الشركة تحقق النجاح تلو النجاح بعد استفادة حسام وعلي من خبرة شركة مقاولات القطاع العام، وبسبب شبكة العلاقات الواسعة والمتشعبة لعلي الإبياري كما قال حسام. كانت مساهمة حسام في رأس مال الشركة متواضعة نسبيًّا وجاءت كنتيجة لبعض المدخرات التي كان يراكمها من أرباح عمله بشركة المقاولات العامة.

نجاحات الشركة عزاها حسام لمهارة الإبياري في الحصول على مقاولات من الباطن من شركات القطاع العام، ومن وزارة التربية والتعليم لبناء مدارس جديدة، أو إقامة أبنية جديدة في فناءات المدارس القديمة، التي كانت أصلًا حدائق قصور وسرايات الأثرياء والباشوات، بعد مصادرتها زمن عبد الناصر، وتحويلها إلى مدارس، ولطالما قال حسام ممنونًا إن علي ومعارفه ممن يشغلون مناصب إدارية رفيعة داخل وزارة التربية والتعليم، هم أصحاب الفضل أولًا في نجاح أعمال الشركة.

حياتي مع حسام صارت عكس حياته العملية تمامًا، فالصعود الصاروخي لشركته كان يقابله هبوط عمودي لعلاقتنا الزوجية. عشرات التفاصيل ظلت تتراكم على مَرّ الأيام، وتُباعد بيني وبينه، لم نعد صديقين كما كنا من قبل، لا نقرأ كتابًا ثم نناقشه معًا.. لا نلتقي بأصدقاء تربطنا بهم أفكار ووجهات نظر مشتركة.. لم تعد السينما جزءًا من روتين حياتنا، وبدأت أشعر بأن حسام ما هو إلا مجموعة من الأقنعة التي تتساقط بمرور الأيام، لتسفر في النهاية عن وجهه الحقيقي وملامح شخصيته الحقيقية، فكل ما بُنيت عليه علاقتنا من آمال وأحلام وأفكار عن الحرية والعدل ووطن تنعم قراه بحياة كريمة، وبتماثيل رخام على الترعة وأوبرا كما يقول صلاح جاهين، باتت في نظري نوعًا من الوهم والسراب، وشعارات ربما لم يكن مؤمنًا بها حقًّا في أي يوم من الأيام. كانت قناعتي بهذا تتزايد، وتتأكد كلما تأملت سلوك حسام وتصرفاته، وكل المتغيرات المستجدة في تفكيره سواء تجاهي أو تجاه الآخرين. في بداية زواجنا، كان يسهم في بعض الأعمال المنزلية، حتى لو عاد مرهقًا من العمل، خصوصًا بعد تعييني بالمدرسة، يرفع الصحون والأكواب بعد الغداء أو العشاء، يعد كوبين من الشاي باللبن ساعة عصاري، لكن بات وبمرور الوقت، من المستحيل أن يمد يده لأي عمل بالبيت، كاستحالة الغول والعنقاء والخِل الوفي، بل وبات يشعرني عامدًا أن العمل المنزلي هو شأن خاص بي فقط، وملزمة أن أقوم به من الألف للياء. في إحدى المرات كنت قد عدت إلى البيت بعد يوم عمل مدرسي شاق، في حالة شديدة من الإجهاد، لأنني كنت أدرب تلميذات بالمدرسة على رقصات سوف تؤدَّى في حفل نهاية العام، أعددت طعام الغداء على عجلٍ، وبينما نحن جالسان نأكل على السُّفرة طلبت منه وقد تلون صوتي برنة اعتذار أن يأتي بالهدوم المغسولة من الغسالة، وينشرها على الحبال بعد انتهاء الأكل، وحتى تجف قبل غياب الشمس، وقلت له إني متعبة ومرهقة جدًّا، لأن البنات لم يتقنوا الرقصات كما يجب، فكررنا أداء

الحركات مرارًا، وما زال أمامنا الكثير من البروفات خلال الأيام المقبلة حتى يصلوا إلى درجة مقبولة من الإتقان.

فوجئت به يصرخ، وبدا صوته بأذني، وكأنه هبابٌ أسوَد مندفع بقوة من مدخنة:

- يعني لم تنشري الغسيل قبل خروجك الصبح، وأنا محتاج القميص البيج المخطط بالليل، لأني نازل اجتماع شغل مهم.

- قلت باستنكار مدافعة عن نفسي:

- كنت مستعجلة جدًّا، لأني لازم أكون مبدرة ساعة قبل جرس طابور الصباح بسبب تدريب البنات. قلت لك هذا الكلام من يومين: التدريب ساعة قبل طابور الصبح، وساعة بعد جرس الحصة الأخيرة، والانصراف من المدرسة، ثم عندك قمصان ياما.. البس قميصًا أبيض.

عندك قمصان بيضاء في الدولاب مغسولة ومكوية، والأبيض يليق على لون أي بدلة.

زادَ تصاعُد السخام من فمه:

- عاوزة حضرتك ألبس على كيفك.. يا فرحتي بالقميص الأبيض.. ما هو آخر الرقص والحفلات والمسخرة إنك تقولي ألبس القميص الأبيض.

أطلقتُ بدوري الدخان الساخن المكتوم بصدري بعد أن ألجم الغضب لساني للحظات، بينما عيناي تتسعان بالدهشة، وصرخت:

- الرقص مسخرة.. الحفلات مسخرة.

قاطعني:

- بصراحة كفاية شغل.. استقيلي من المدرسة.. المرتب تافه، والتربية الرياضية ما تسوى همها، لا فيها دروس خصوصية، ولا أي امتيازات مادية. بيتك أولى من الخروج، والجري في الشوارع وركوب المواصلات، ثم إن ربنا فاتحها علينا، ودخلي أكتر من ممتاز. اقعدي واهتمي ببيتك وحالنا.. لو كنتِ مُدرسة مادة مفيدة، مادة تحصل منها منفعة كنت قلت ماشي الحال، ولكن الرياضة والرقص، رياضة بنات، كلام فارغ وربما يحصل بسببها بلاوٍ وكوارث تخرب بيوت، وأنتِ فاهمة معنى كلامي.

زمان قالوا الواحدة مصيرها مهما كانت بيت العَدَل.. سموه بيت العَدَل.. تأملي المعنى والنبي وفكري بالعقل.

هدأ قليلًا، ثم واصل بصوت بذل جهدًا كي يكون طبيعيًّا بينما بقيت في مطرحي أنظر إليه مبهوتة:

- هل فكرت في مشكلتنا إياها؟ هل فكرت أن لعبك الجمباز من أيام المدرسة وأنتِ صغيرة، ربما كان السبب في مشكلتنا ليلة الدخلة؟ فكري واعقلي، واحمدي ربنا.. أنتِ في نعمة بحق وحقيق.

كنا قبل الزواج، أيام الحب القديم، كثيرًا ما نذهب منفردين إلى حديقة الأورمان بالدقي، أو حديقة الأسماك بجبلاية الزمالك، لأحكي له ونحن جالسان تحت شجرة عن حلمي الخاص بتكوين فرقة رقص، أعبر من خلالها عن كل ذلك المكنون بداخلي وعما يمكن أن يفعله الرقص بالناس وحياتهم.. كنت أحب فرقة رضا، ومن أشد المعجبات بعروضها، لكن طموحي كان أبعد من ذلك، أبعد من الرقص الشعبي الفولكلوري، وما تقوم به فرقة رضا، وبعض الفرق الأخرى المشابهة لها. كنت أمضي شارحة له بحماس، بينما يضم كفي بين كفيه، توقي لأن يكون الرقص أداة تعبير سياسي وإنساني، ووسيلة احتجاج كالمظاهرة أو الإضراب، وكيف أن الجسد البشري، يستطيع بأدائه الجماعي البليغ رفضه للظلم، والقهر، ويطالب بالحرية والعدالة والمساواة بين الناس.

كنت أشرح له كيف أنني أرغب في مزج الرقص بالجمباز، وأوظف حركات الجمباز السريعة المباغتة، والمعبِّرة عن جمال التوازن الحركي، في ذلك الرقص الجماعي المستنهض للروح الإنسانية، والمعبِّر بلغته الخاصة عن آمالها وأحلامها في هذا العالم.

كان حلمي بالرقص وقتها.. لا حدودَ له، كنت أحلم بتغيير أفكار الناس ومفاهيمهم ورؤيتهم لذواتهم وللآخرين.. بالرقص.. فقط بالرقص.

الآن.. أحاول تجريب ذلك مع تلميذاتي الصغيرات بالمدرسة الإعدادية من خلال ما أعده من رقصات سوف تُعرض في حفل المدرسة آخر العام الدراسي. أجل، ما زلت أحلم أحلامًا كبيرة ولديَّ آمال عريضة بالرقص، أحاول أن أحققها وإن كان ذلك عبر محاولة متواضعة مع تلميذات ما زلن يتفتحن على هذا العالم، بمدرسة حكومية فقيرة.

كنت وما زلت أعتقد أن الرقص يستطيع مساعدة الناس، ودفعهم لتحرير أرواحهم من أوهام حياتهم البائسة.

لكنه ها هو الآن، يُعلن بالفم الملآن، ودون أن يستحي من نفسه: اتركي الشغل.. الرقص كلام

فارغ.

الأستاذ المناضل، مَن كان يرغب في تحرير سيناء بالكفاح المسلح، يعلن بوقاحة: الرياضة لا لزوم لها للبنات، البنات مصيرها بيت العَدَل، وهو الذي كان في الأيام الخوالي يشجعني ويحفزني للتشبث بحلمي وطموحي هذا، ويقول إنه فخور لأنني حبيبته، وأنه لا يصدق أن وعيي بالعالم قد تطوَّر إلى هذا الحد، وأن رهانه عليَّ كحبيبة ورفيقة درب لم يكن خاسرًا.

لكن يبدو أن رهاني أنا عليه لن يكون كذلك أبدًا.. كنت خلال هذه الآونة ألاحظ عندما أقرأ الصحف والمجلات، وحتى في بعض برامج التليفزيون الشهيرة كلامًا كثيرًا ولغطًا يدور عن عمل المرأة، وعودتها مرة أخرى إلى البيت، وضرورة تفرغها لرعاية زوجها وأولادها.

وكلما طالعت مقالًا، أو استمعت إلى حديث بهذا المعنى.. أتذكر كلماته: بيتك أولى من الخروج.. سموه.. بيت العَدَل.

بعد ذلك بحوالي أسبوع، وبينما كنا نشاهد التليفزيون معًا في المساء، ونتابع خطاب أنور السادات بمجلس الشعب، صَدَمَنَا تصريحه بأنه مستعدٌّ للذهاب إلى إسرائيل.

كانت علاقتي بحسام تزداد توترًا، وعندما نكون معًا أشعر بضيق وارتباك، وكأن هناك من يراقبني، أو يضيق عليَّ الخناق، لكن كلمات السادات لم تصدمني فقط، لكن أشعرتني وكأنني أعيش كابوسًا فظيعًا شديد الرعب.. لكني تماسكت حتى لا أصرخ.. حسام جزَّ على أسنانه طويلًا قبل أن يقول:

- بكرة يدفع ثمن هذا الكلام.

صدمتي الكبرى جاءت بعد ذلك بأيام، كان حسام ممددًا على السرير بغرفة النوم بعد إفاقته من قيلولة بعد الظهر، وكنت قد أعددتُ شاي العصاري ووضعته إلى جواره على الكومودينو، بينما أجلس أمام التسريحة أمشط شعري المبلل بعد خروجي من الحمَّام، تأملني قليلًا قبل أن يقول:

- شعرك صار خفيفًا وهايش طول الوقت. البسي حجابًا يخلي مظهرك محترمًا، وشكلك أحسن، ثم أضاف مبتسمًا: توبي.. توبي إلى الله. رحتُ شركة المقاولات القديمة من حوالي شهر، بسبب مقاولة بين شركتنا وبينهم، ووجدت كل زميلاتي المهندسات بسم الله ما شاء الله محجبات، ولا واحدة بدون حجاب، ما عدا المسيحيات طبعًا. لازم يكون مظهر المسلمة مميزًا فعلًا، ومختلفًا عن مظهر غير المسلمة. بُصي حواليكِ في كل مكان.. المحجبات شكلهن وقور جدًّا، والطهر والنور

طالل من كل واحدة لابسة الحجاب. الحقيقة معجزة حصلت في البلد من رب السماء.

تملَّكني غيظ شديد من كلامه، فأنا لا أطيق شيئين ولا أتعامل معهما أبدًا: نظارة الشمس التي تزيِّف رؤيتي للأشياء وألوانها الحقيقية بقتامة عدساتها، وكذلك أي غطاء على دماغي، ويقفل على أذنيَّ مهما كان: إيشارب في زمهرير الشتاء، أو برنيطة تحمي من شمس الصيف الحارقة، ثم إنه يطلب مني أن أتحجب لأكون ذات شكل محترم، وهل أنا الآن شكلي غير محترم؟!

رغم محاولته المزاح إذ قال توبي وهو يبتسم، إلا أنني لا أعرف عن أي معاصٍ أرتكبتها يتحدث كي أتوب إلى الله منها.. ما هذه اللغة والمفردات الجديدة التي يتحدث بها، وما هذه المصطلحات الجديدة التي صار يستخدمها في كلامه الآن. لم يعد يرد على التليفون ويقول آلو، بل صار يقول: السلام عليكم ..آلو .. أجنبية طبعًا، والسلام عليكم ..عربية ولا بأس بها، لكن حضرته يستخدم عشرات الكلمات الأجنبية كلَّ يومٍ ويقول بانيو وأسانسير وتليفزيون.. طيب يعني "آلو" صارت كخة والسلام عليكم دحة، بس؟!.

كثيرًا ما كنت أشعر، أو بالأحرى هو يُشعِرني بأن ما حدث ليلة دخلتنا ما زال مترسبًا في أعمق أعماقه، وهو لم يستطع تجاوزه أبدًا، لم يكن يصرِّح بذلك عبر كلام مباشر صريح، لكنه فضَّل الهمز واللمز بين وقت وآخر، في إحدى المرات، وبينما كان يتحدث عن علي الإبياري، قال إن أخاه عاوز يرتبط بواحدة مطلقة، لكن علي اعترض رغم أنها حلوة جدًّا وغنية ومن عيلة أشراف بالصعيد، وقال لأخيه: هو أنت بك عيبة؟ ولا شيء يخليك تتجوز واحدة عزباء. اصبر وأنا أجيب لك واحدة بنت بنوت صاغ سليم وكاملة من مجاميعه.

كثيرًا ما كنت أسائل نفسي: لماذا لا يتركني حسام ويتزوج بدلًا مني بواحدة أخرى، واحدة بنت بنوت وكاملة من مجاميعه وتفك عقدته من البكارة وغشائها التافه القذر؟ ما الذي يجعله لا يقدم على ذلك وقد صار ميسورًا ممتلكًا للمال الذي يسهل عليه هذا الأمر؟ لماذا لا ينهي علاقتنا وننفصل بالطلاق ويستريح؟ كنت مرتبكة بسبب كل هذه الأسئلة طيلة الوقت، في بعض الأحيان ينتابني شعور بأنه ما زال يحبني ويرغبني، وفي أوقات أخرى كانت نظرات الشك والكراهية تطلُّ من عينيه تجاهي.

بتُّ حائرة ولا يقين لديَّ في أي أمرٍ من الأمرين، وكثيرًا ما تساءلت: هل لديه دوافع خفية في استمرار علاقتنا؟ نحن لم ننجب، ولا قيود تكبله متعلقة بهذا الجانب أو حتى بغيره، فلقد تزوجنا

بدبلتين ومقدَّم صداق خمسة وعشرون قرشًا لا غير، ومثل ذلك كمؤخر صدَاق.

ذات مساء، قررت أن أفاتحه وسألته مباشرة:

- حسام.. هل ما زلت تحبني؟!

كان جالسًا يخطط لتحويل دور أرضي بعمارة إلى جامع بناءً على طلب صاحب العمارة، وكانت ظاهرة تحويل الأدوار الأرضية بالعمارات إلى جوامع قد انتشرت بعد أن قرَّر السادات إعفاء هذه العمارات من العوائد، أو ضريبة العقارات. كان منهمكًا باحثًا عن حلول لإزالة الجدران وبعض الأعمدة المسلحة دون أن يشكل ذلك خطرًا على المبنى. فاجأه سؤالي.. رفع النظارة عن عينيه، ثم أمسك بخصلة أمامية من شعره مثلما اعتاد أن يفعل وهو متوتر، وأجاب بعصبية:

- ما لزوم هذا السؤال الآن.. جرى شيء خلاكي تسأليني وأنا مشغول ومركز في الشغل؟!

قلت: "أبدًا" وسكتّ، لكن وبينما كنت أضع رأسي على المخدة لأنام، رحت أتابع تفاصيل حياتي معه بعد الزواج، وصرت متأكدة بأنني صرت كائنًا مسلوب الإرادة تمامًا، وأن دوامات طموحه التي تتسع كلَّ يومٍ تسحبني بعيدًا عن نفسي وعالمي الذي تشكَّل وتداخل وتقاطَع في عشرات التفاصيل مع عالمه. كنت أتأمل استلابي هذا، وأفسره كلما فكرت فيه، بأنه محاولة لا شعورية مني لتعويضه عن الأذى النفسي الذي لحق به، ومعاناته بسبب ما جرى ليلة زفافنا، لقد أصيب بعقدة نفسية، وصار يرى العالم من خلالها.. ولكن وماذا عني.. ماذا عني أنا عفت؟!

كبرَ السؤال وتضخم برأسي وأنا أسعى لإيجاد إجابة عنه، وشيئًا فشيئًا اكتشفت أنني وبسبب ما حدثَ ليلة الزفاف أيضًا.. صرت معقدة، وأن العقدة الراسخة في أعماقي باتت هي المحرك لتصرفاتي وسلوكي ورؤيتي لنفسي وحياتي مع حسام.

لو كنت أعرف قبل الزواج أن هناك مشكلة ما بغشائي أُس المصائب هذا، ربما كانت الأمور ستجري على نحوٍ مختلف، قد أصارح حسام بهذا، أو أذهب إلى طبيب لأخذ رأيه عله يجد حلًّا، أو حتى زواجي وارتباطي بحسام يكون موضع تفكير، لكن هذا الغشاء المبجل والمقدس عند كل الأطراف لم يحدثني عنه أحد ذات يوم، ولم يكن طرفًا حاضرًا في حياتي أبدًا، فقط.. الكلام يكون عن المنطقة الخطيرة جدًّا الواقعة بين الفخذين، يكون بالأمر المشدَّد بعدم لمسها أو الاقتراب منها، فهي خطيرة خطورة مثلث برمودا الكائن بأقصى المحيط، والذي قرأت ذات مرة عنه عندما كنت تلميذة بمجلة "العربي" الكويتية التي كان يشتريها أبي.

أنا لم أكذب على حسام أو أخدعه، ولم تكن لي علاقة جسدية بأي رجلٍ قبل زواجي من حسام. لكن.. لو كانت هناك علاقة بكائن ما وفقدت بكارتي، لماذا يتحول هذا الأمر إلى مشكلة؟ حسام نفسه حكى لي عن علاقاتٍ ربطَتْهُ بفتيات قبل الزواج، ولم يؤثر ذلك على حبي له أو موقفي منه.. لماذا كل هذه العقد؟! لماذا عقدة عنده.. وعقدة عندي تنغص حياتنا وتزيدها تعقيدًا؟!

أقلب وحدي - بينما رأسي على الوسادة - الأمر على كل الوجوه، ألتمس له العذر، وأقول: يا بنت.. أنتِ صدمتيه وآذيتيه شعوريًّا، فبدلًا من أن يسعد ويبتهج بحبيبته وفتاته أُصيبَ بالحزن والإحباط، وعاش طيلة الوقت بشعور الكائن المخدوع، لا.. لا تكوني قاسية بأحكامك.. هو في النهاية حبيبك ورجلك الأثير، هو من فتح عينيك على الكثير في هذا العالم، ولولا القدَرُ الذي وضعه في طريقك لكنتِ مثل آلاف، وربما ملايين، البنات الأخريات ضيِّقَات الأفق، واللواتي لا تزيد أحلامهن عن زوجٍ وأطفالٍ وحياة منزلية مريحة. لقد بتُّ إنسانًا مختلفًا بسبب علاقتك به، وربما لولا ارتباطك به لكنت نسخة أخرى من أختك عفاف التي لا يخرج عالمها عن مجلات "حواء" وباتروناتها وفساتينها.

كنت أقدِّم التنازل تلو التنازل، وأتماهى مع كل ما يرغبه، ظنًّا مني أن مسلكي هذا معه ربما يبعد عن عينيه تلك النظرات الغاضبة حينًا، والمستريبة حينًا، والحزينة في مراتٍ أخرى، والتي تطل منهما معظم الوقت.. تنازلاتي المستمرة كانت تطمئنه وتمنحه سكينة عابرة، تبهجني وتُطمئنني أيضًا خصوصًا عندما ينعتني بأنني "ست مريحة".

مرت سنوات ولم يأتِ الطفل المنتظر المأمول، وربما رسخ هذا بأعماقي فكرة أن حسام هو طفلي، طفلي الكبير المدلل الذي لم أنجبه.. كنت ألبي كل طلباته، وكل ما يرغبه، وتركته يقود حياتنا، ويهيمن على كل تفاصيلها من الألف للياء، فهو الذي يختار ألوان الستائر، ويشتري بنفسه ملاءات السرير، حتى كؤوس الماء والشاي وفناجين القهوة كان يشتريها على ذوقه، وقد ساعده على ذلك رحلاته المتكررة للسوق الحرة بالمدينة التي لم تعد حرة (بورسعيد)، وكأن اختيار السوق الحرة بها دون كل المدن الساحلية المصرية الأخرى، يحمل دلالة ورمزية عودة الاستعمار الاقتصادي، بعد أن مُنيَ بهزيمة عسكرية فيها سنة ١٩٥٦. كانت بورسعيد هي أحد ملامح سياسة الانفتاح الاقتصادي الساداتية، وتجسيد صارخ لها.

عندما كنا نخرج لشراء أشياء تتعلق بالمنزل واحتياجاته، إذا قلت هذا جميلٌ يسارع هو مُشِيرًا

إلى شيءٍ آخر من ذات النوع ويقول: بل هذا أجمل. كنت أوافق على الفور بسماحة نفس، ودون إصرارٍ على رأيي، وبرضا نابع من إيماني به وحبي له، ورغبتي الصادقة في إسعاده.

أما الحجاب.. قطعة قماش أغلف بها رأسي، وأكفن بها رقبتي وقفاي.. فلا وألف لا. مرات ومرات تناقشت وتجادلت معه في موضوع الحجاب منذ اليوم الذي فاتحني فيه طالبًا ارتداءه بينما كان ممدَّدًا على السرير.. مرة بهدوء عارضة منطقي ووجهة نظري، ومرة بعصبية وخناق وزعيق كتطور طبيعي لفورات الغيظ والغضب المتراكمة بداخلي. في البداية كانت حجته أني مكبرة المسألة، بينما الموضوع بسيط، وهو يرغب في أن يكون شكلي ومظهري الاجتماعي محتشمًا ووقورًا، قلت له إن معظم فساتيني وهدومي ١/٢ كم أو ٢/٣ كم، وطولها واصلٌ لحدّ تحت سمانة رجلي، والموضة صارت الطول الشانيل والحمد لله. يعني حوالي شِبر بحاله تحت الركبة.. لبسي محتشم ووقور، ولا عَلاقة لقماشة على النافوخ بالاحتشام والوقار. أخيرًا صرَّح: كل زملائي في الشركة زوجاتهم وحتى بناتهم المراهقات صرن محجبات.. أنا كاره إن أي واحد ينتقدني، أو يعلق مرة على شعرك ومظهرك لو شافنا بالصدفة، أو في أي مناسبة من المناسبات.

توقفت معركة الحجاب بعد ذلك لفترة من الزمن، فبينما كان السادات يوقع اتفاقية كامب ديفيد مع مناحم بيجن رئيس وزراء الكيان الصهيوني، كانت طائرة تحلِّق بحسام عاليًا بالسماء باتجاه المملكة العربية السعودية، إذ كانت شركة حسام وشريكه علي الإبياري، والتي أسماها شركة "قباء للاستثمار العقاري" قد حصلت على مقاولة كبيرة في واحدة من مدن المملكة الصحراوية، وقد وصفَ حسام هذه الصفقة قبل سفره بأنها: نصر من الله وفتح مبين.

واصلت عملي كمدرِّسة تربية رياضية، ولم أتركه كما أرادَ حسام، لكن بعد أخذٍ وردٍّ، وشدٍّ وجذبٍ ومهاتراتٍ كلامية شِبه يومية، وافقت قبل سفره، وحتى لا نكون في حالة توتُّر وتنافُر، بينما هو يذهب بعيدًا خارج البلد، عليَّ أن أضع على رأسي شيئًا هو منزلة بين منزلتين، يعني لا حجاب بالضبط، ولا شعر مكشوف تمامًا، بل عمة، أو طاقية، كتلك التي يضعها بعض أبطال وشخصيات ألف ليلة وليلة، وكان شَرْطي مع حسام أن تكون أذنيَّ خارج حدودها، بلا قيود تعوقها، تسمع ما تشاء من كلام وأصوات. كان هذا الشيء الذي يُطلق عليه "البونيه" هو الحل الوسط شِبه السعيد الذي تمت بسببه هدنة معركة الحجاب، وقد فاجأني حسام بابتياع عددٍ منه، بعضه بألوان زاهية، وبعضه بألوان داكنة، وعندما وضعت الأسود فوق رأسي، ورحت أطالع نفسي بالمرآة صفق بيديه

وقال: رائع.

لكني عارضتُه:

- زفت، شكلي كأني واحدة محكوم عليها بالإعدام.

وبعد ستة أشهر عاد حسام من السعودية، وعندما ذهبت لاستقباله بالمطار كان "البونيه" يحتل رأسي طبعًا.

١٩٨١

تكرَّر سفر حسام كثيرًا إلى السعودية في مهمات عمل تتعلق بشركة المقاولات والإنشاءات. كان رصيده يتزايد ويتضخم في البنوك، بينما تتضاءل أرصدة الحب بيننا، لاحظت تزايد نهمه للأكل، وخشونة سلوكه بصفة عامة، وحتى في ممارسته العلاقة الحميمية بيننا تراجعت المشاعر الإنسانية كثيرًا، وبات أداؤه لا يخلو من عنف، اختفت من قاموسه كلمات من نوع: لو سمحتِ.. شكرًا.. تعبك راحة.. ويا للعجب، فقد كنت ألاحظ أن كلمات من هذا النوع وكل كلمات الذوق واللطف بدأت تختفي، وتنعدم من تعاملات كثير من الناس حولي، وعند الباعة في المحلات والأسواق، فعندما أشترى بعض الخضراوات أو البقالة، وأقول للبائع شكرًا عندما أناوله النقود، لا يكلف خاطره بأن يقول: عفوًا.

بدأ حسام يستبدل بيجامات النوم بالجلاليب، ولا يجد غضاضة بالخروج إلى الشارع في بعض المرات وهو يرتدي جلابية، وفوقها عباءة بأطراف مذهبة، كما هي العادة عند بعض العرب الأغرب، أنه لم يعد راضيًا عن أي شيءٍ في مصر، ويقارن تفاصيل الحياة فيها بالحياة في المملكة العربية السعودية، وصار كثيرًا ما يبدأ كلامه وهو يعلق على الحياة بمصر قائلًا: "عندنا في السعودية... إلخ".

حتى هدى، صديقتي شِبه الوحيدة، والتي طالما استلطفها كثيرًا، صارت في رأيه كراقصات الكباريهات، تلطخ وجهها بالمساحيق، وتتقصع في مشيتها، و(قولي لها تبطل تلبس هدوم محزقة ومبينة تفاصيل جسمها).

فقدتُ حماسي وبمرور الوقت لعملي بالمدرسة، فحفلات آخر العام بات الرقص فيها شِبه مستحيل، بسبب رفض أولياء الأمور إشراك بناتهم في الفقرات الراقصة، خصوصًا بعد انتشار الحجاب على رءوس تلك البنات.. بنات بالمرحلة الإعدادية، هن وبحكم القانون والعقل: طفلات

قاصرات.

انضم للشركة شريك جديد، رجل أعمال سعودي صديق لعلي الإبياري، كان مزاملًا له بجامعة الأزهر في كلية الهندسة.. الرجل كان مختصًّا بتجارة رائجة جدًّا ومزدهرة بكل بلدان النفط وهي تجارة العطور، لكن علي وعندما التقاه مجددًا أثناء تردُّده على السعودية مع حسام أقنعه بالدخول في قطاع التشييد والمقاولات بمصر لأنه قطاع مزدهر، وسوف يزدهر أكثر وأكثر، وسرعان ما نما رأس مال الشركة بعد أن ضخ بها رجل العطور أموالًا كثيرة بصفته شريكًا، وقد كانت شراكته هذه نقلة حقيقية في نشاط الشركة، فقد استطاعت الدخول في مقاولات كبيرة، ومنافسة شركات كبرى في هذا المجال، وباتت شركة "قباء" تشتري الأراضي الزراعية من أصحابها الفلاحين بأسعار مغرية لتحولها إلى عمارات شاهقة، وأبراج كبيرة، وعن طريق الرشاوى والتحايل على القوانين ارتكبت كل المخالفات الممكنة في البناء، لتحقيق أعلى ربح، أما الأراضي الصحراوية الواقعة على أطراف القاهرة فقد قضمت "قباء" منها قضمة لا بأسَ بها باعتبارها لقمة حلوة لكل من يستطيع الدفع تحت الترابيزة للمسؤولين عن هذه الأراضي.

فلوس الشركة المتزايدة بفضل الشريك السعودي، وشطارة علي الإبياري، سهَّلت أعمال التراخيص، وتلقيم مسئولي الأحياء وموظفيها بالأموال المناسبة.

تعرفت على أم عرفة زوجة الشريك الثالث الجديد، وهي مصرية، في اجتماع من الاجتماعات التي تعقدها للسيدات في فيلتها بطريق سقارة بالهرم.. حملني حسام إليها في السيارة التي كان قد اشتراها مؤخرًا بعد أن أصرَّ على ضرورة تعرُّفي على أُم عرفة، فهي -وكما قال- محترمة جدًّا، وملتزمة، وتعقد للنساء مجالس عِلم ودين، وتقوم بتوعيتهن في أمور دينية ودنيوية، وفوق ذلك إحدى زوجتي الشريك السعودي.

ذهبت إليها، وقد أخذني الفضول للتعرُّف على هذا النموذج من النساء وقد بدا غريبًا بعض الشيء بالنسبة لي.

كانت الفيلا جميلة بالفعل، ومحاطة بحديقة منسقة جدًّا، وتتناثر بها أشجار ونخلات، بينما يبدو بأحدِ أركانها حمَّام سباحة صغير.. الصالون الذي أدخلت إليه ضمَّ حوالي خمس عشرة سيدة، وهو في الحقيقة غرفة متسعة جدًّا، تضم عدة أطقم مذهبة. بدا كل شيء مكلفًا، باهظ الثمن: الستائر، ونجف السقف الكريستال والسجاجيد المتناثرة على الأرضيات الخشب الباركيه. لكن كان هناك أمرٌ

منفِّر، فالذوق كان شديد السخف، والتنسيق اللوني مفتقدًا، والجمال الحقيقي غائبًا، وكل شيء بدا لي وكأنه نوع من استعراض الثراء، بهدف الإبهار.

معظم الجالسات يغطيهن النقاب أو الإسدال، قليلات كن محجبات، وأظن أنني بديت شاذة بينهن بذلك "البونيه" الذي أضعه فوق رأسي.

استقبلتني أم عرفة عندما جاءت بترحاب شديد، وهي بيضاء، سمينة نوعًا ما، وبوجه حلو بشوش، ويبدو أنها كانت تعرف عني قليلًا، ربما عن طريق زوجها شريك زوجي، لأنها سألتني عن أحوالي في المدرسة، وهل لا زلت أدرس الألعاب (هكذا قالت)، ثم بدأت، بعد أن قُدمت بعض المشروبات، في إلقاء درسها، وكان عن الرضاعة الطبيعية وأهميتها لصحة الطفل والأم.

شعرت بالملل، لأن النقاش الذي دارَ بعد الدرس طال قليلًا، فإحدى الحاضرات أثارت أن الرضاعة الطبيعية تفسد جمال الأثداء وتفقدها رونقها، وتجعلها تتهدل بعد فترة، كما أن الحلمات تصبح ممطوطة كحلمات المعيز، واشتكت أخرى من ندرة المرضعات في الوقت الراهن التي تتجاهلها برامج المرأة، وبرامج الطفل والأسرة، خصوصًا أنها مهنة توفر دخلًا بالنسبة للكثير من النساء الفقيرات، وتجنبهن العمل في أماكن غير لائقة.

بعد قليلٍ، تحوَّل الملل إلى عجب واندهاش وشعور عميق بالغربة وسط هاتيك النساء، وسرعان ما شعرت بضجر عارم وصداع يأكل نصف رأسي، فطلبت ماءً، وأي نوع من المسكنات. بعد انتهاء الدرس والنقاش دعتنا أم عرفة لتناول الغداء، وهي تقودنا إلى غرفة السفرة بعد أن أزاحت الباب الخشبي الجرار الفاصل بينها وبين الصالون، لأكتشف مائدة ممتدة تشكل وليمة تكفي حوالي أربعين شخصًا كما خمنت، وقد وُضعت عليها صنوف من اللحوم والدجاج، وأنواع من المحاشي والسَّلَطات، وبينما كنت آكل فكرت حائرة فيما سوف يفعلونه بكل ذلك الطعام الذي سوف يتبقى ولا بُدَّ من هذه الوليمة. أكلت قليلًا دون شهية، واكتفيت بتأمل النساء وهن يأكلن، كانت بعضهن قد خلعن النقاب، فبدت وجوههن بمساحيق كاملة.. وجوه أشبه بوجوه ممثلات السينما.. عيون كحلاء، وحواجب مرسومة بدقة، وشعر مصبوغ متكوفر، ثم ذهب وألماس وجواهر في الأذنين والصدر والمعصم، تساءلت بدهشةٍ بيني وبين نفسي: هل نحن في مصر فعلًا؟! قفزت إلى رأسي صور زميلاتي في المدرسة بملابسهن المتواضعة ونساء الأتوبيس وهن واقفات يلهثن بعد الجري وراءه والصراع لإيجاد موقعٍ قدم لهن، حتى يذهبن إلى أعمالهن في الأوقات المحددة.. لا.. لا.. أنا في

مكان الآن لا يمكن أن يكون موجودًا بمصر.. مصر التي أعرفها.

عندما عدت إلى البيت، استقبلني حسام ببشاشة مبالغ فيها بعض الشيء، وراح يسألني عن رأيي في أم عرفة، وانطباعاتي عن الحاضرات، وما قيل في المحاضرة، هززت كتفي بحركة متبرمة، بينما أطوح "البونيه" بعيدًا عن رأسي، وقلت:

- بصراحة.. نسوان فارغة.

لم يعجبه ردي، فقال وهو يشير بيده إلى "البونيه" الذي وقع على الأرض ولم يصل إلى التسريحة التي قذفته باتجاهها:

- لعلمك.. أم عرفة دكتورة، ومتخصصة في طب الأطفال، يعني متعلمة وحاصلة على دكتوراه في تخصصها، بالإضافة إلى دبلومة في الفقه والشريعة.. نموذج فريد فعلًا.

وعلى فكرة، معروض عليَّ شراء فيللا بالمنطقة ذاتها، بسعر حلو ومعقول جدًّا، لكني عمَّال افكر واحسبها.. ما رأيكِ؟!

أجبته وأنا أتثاءب، إذ داهمتني رغبة في النوم:

- تغور.. مقطوعة وبعيدة، وبالليل لازم تكون كلها ناموس لأنها قريبة من الترعة والزرع.

يوم الجمعة.. يوم أجازتنا الأسبوعية، اعتدنا أن نخرج فيه.. نذهب إلى أهلي بالزيتون أحيانًا، أو نذهب إلى السينما في أحيان أخرى، مرات كان حسام يدعوني لأكلة حمام في الكازينو القديم الواقع عند نيل البحر الأعظم والمعروف بكازينو الحمَّام. كان الذهاب إلى هذا المكان عادة من عاداتنا القديمة، والتي ظلَّت مستمرة رغم مرور السنوات على زواجنا، فالنيل في هذه المنطقة واسعٌ عريضٌ، وخلال الأمسيات يكون جميلًا جدًّا، لكن في إحدى المرات، وبعد عودة حسام من السعودية بفترة، ذهبنا إلى كازينو الحمام، وحينما كنا نأكل وجدت حسام يتوقف فجأة عن الأكل، وبدا منفعلًا وهو يشير إلى سيدة شقراء تجلس بمفردها، وهي تأكل وتحتسي البيرة، ثم يقول:

- البلد صارت مسخرة والله.

في الأول تصورت أنها خوجاية أجنبية، لكن لما تكلمت مع الجرسون اكتشفت أنها عربية.

نظرت.. بدت لي في دكنة الليل وسواده سيدة أربعينية.. علقت:

- مالها؟! شكلها محترم، وشعرها ملموم ومرفوع بطريقة رائعة.

- محترم.. قاعدة لوحدها، ونازلة شرب بيرة وتقوليلي محترم.

نظر بعدها إلى صدري بضيق وقرَّر:

- لازم تلبسي سوتيان فوق سوتيان، معالم صدرك كلها واضحة، والبلوزة مفسرة كل حاجة وقماشها خفيف.

ضحكت بدهشة وقلت:

- معالم صدري.. هو صدري له معالم؟

بالفعل، لم تكن لصدري معالم واضحة، فهو شبه ممسوح، وكأن وجوده لم يكن إلا للدلالة على نوعي الفسيولوجي كأنثى. لذلك كنت أحرص دومًا على لبس سوتيان من قماش سميك ومبطن حتى أظهر بصدر أكبر حجمًا وحضورًا.. علقت على طلبه مازحة:

- طيب.. احلق ذقنك أولًا، وبعدها ألبس لك بدلًا من السوتيان الواحد ثلاث فوق بعض مرة واحدة.

بصراحة كنت قد بدأت أتضايق جديًّا من شكل ذقنه، فقد تركها تنمو براحتها دون تهذيب أو تشذيب، مما جعل وجهه كئيبًا جهمًا. كانت لديه غمازة لطيفة أسفل هذه الذقن، كنت أحبها كثيرًا خصوصًا عندما تتسع وهو يضحك، لكنها اختفت مع كل هذا الشعر الذي غطاها. وعمومًا فحسام ليس من الرجال الذين تضفي الذقون على وجوههم جاذبية وجمالًا.

قاطعني بحدة:

- مستحيل أحلقها.. اللحية وقار، وكل مسلم لازم يطلقها ويتركها تطول، وبصراحة لازم يمنعوا شُرب البيرة والخمور في أي مكان عام.. حرام البلد تمشي طول الوقت بطريقة حرام.

- ما خلِصنا من سيرة البيرة.. قلت، ثم أضفت:

- حتى في الفُسح والخروج، كل الكلام صار عن الحلال والحرام.. يللا نقوم نروَّح.

وكانت هذه آخر مرة نذهب معًا فيها إلى كازينو الحمام، أو أيّ مكانٍ آخر، لأجل الترويح عن النفس والفسحة.. بتنا نخرج معًا فقط لأجل تأدية واجبات اجتماعية مثل: عيادة مريض أو الذهاب إلى عزاء متوفٍ، وصارت علاقتنا تتقدم في نفق الخلافات الضبابي بخُطى سريعة، إذ بات هو يثور لأتفه الأسباب، ويتلمظ على أي كلمة أو فعل من أفعالي، ليكيل لي اتهامات تتراوح بين الإهمال واللامبالاة فيما يتعلق بدوري كزوجة من ناحية، أو لأنني لا أتقي الله بالقدر الكافي وأعرف ديني على النحو الصحيح من ناحية أخرى.

عادة كنت أتجاهل كلامه هذا، حتى يسير مركب حياتنا ولا يتوقف عند منغصات من هذا النوع، لكن في مراتٍ لم أكن أحتمل توبيخه المستمر، فأغضب وأثور، وأدخل معه في معارك كلامية تكون نتيجتها النهائية: لا خاسر ولا منتصر.

الشعور المزمن، الذي ظلَّ يلازمني خلال ذلك كله هو أن حياتي لا تتقدم، بل تتسارع بخطى واسعة تجاه الخلف. كان كل ما يحيط بي يكثف ويؤكد شعوري هذا، فالمدينة التي نشأت وولدت بها منذ ما يزيد على ثلاثة عقود صارت مدينة مزدحمة لا تُطَاق، وباتت القذارة المنتشرة في كل مكان مَعْلَمًا أساسيًّا من معالمها.. كانت ملامحها القديمة الساحرة تبهت وتغيب يومًا بعد آخر.. البنايات الصغيرة المحاطة بالأشجار، الترع الممتدة بأحياءها وضواحيها، سرعان ما تحوَّلت إلى أزقة وحارات تعلو جانبيها أبنية عشوائية قبيحة، حتى رائحة المدينة لم تعد مثلما كانت خصوصًا وقت الربيع، فيتشبع هواؤها ونسيمها بروائح الياسمين والنرجس والريحان، وزهرتي الرقيقة الرهيفة.. زهرة البسلة، والتي طالما تمددت على الأسيجة الحديدية للبيوت والمدارس، لم تعد تظهر بألوانها الحمراء والبنفسجية المتدرجة، ولم تعد تفوح بعبيرها السحري الغريب خصوصًا عندما كنا نحفظها بين طيات كراساتنا وكتبنا المدرسية لتبقى بها أيامًا وأشهر ممتدة.

الأفكار القديمة التي رضعناها مع لبن أمهاتنا عن الخير والشر، والطيبة والتواضع، والصدق وحب الناس، بدأت تختفي من قاموسنا الحياتي، حتى بديهيات كالاستعمار، والاحتلال، وحق الشعب في تقرير مصيره، والتي تعلمناها منذ جلوسنا في مقاعد الدرس الأولى، باتت مصطلحات وعبارات مثيرة للسخرية والضحك، وعندما أفضيت إلى حسام بملاحظاتي عن ذلك ذات مرة، وقلت له بدهشة إن البنات في المدرسة لم يعدن يعرفن أن فرنسا احتلت الجزائر، وأن تشومبي قتل "لولومبا" في أوغندا، وأنني عندما كنت في عمرهن كنت أسير في مظاهرات تشارك بها مدرستنا كلها لأجل منع انفصال سوريا عن مصر، عندما قلت له ذلك وروحي تقطر مرارة، ابتسم واكتفى بتعليق سخيف:

- أجيال مختلفة،. وفرْق زمن.

سكنت أختي عفاف بشقة بالقرب من كنيسة العذراء بشارع طومان باي بالزيتون بعد أن تزوجت من ابن البقال المواجه دكانه لعمارة المنشاوي.. كان شابًّا قد تخرج من كلية الآداب قسم اللغة الفارسية، لكنه ومنذ تخرجه آثر العمل مع أبيه بمحل البقالة، وبعد وفاة الأب الذي طالما

رغب في تزويج ابنه من ابنة أخيه سارع دارس الفارسية بالزواج من أختي، باعتبارها محبوبته الأزلية – هكذا كان يصرح دائمًا – وقد أسفر ذلك الجنون الفارسي عن توأم من الذكور: حسن وحسين، وعندما ولدا، اقترح حسام أن يكون الاحتفال بميلادهما بعمل عقيقة، وكنت أول مرَّة في حياتي أسمع شيئًا عن العقيقة، وذبح خروف لتوزيع لحمه على الغلابة والفقراء، لكن زوج عفاف رفض، وقرَّر شراء إبريقين فخار وزينهما بورد، وجاب نُقل وحمص وفول سوداني وشمع وعيال أهله هيصوا مع عيال العمارة وغنوا "حلقاتك برجالاتك"، وعمل سبوع عادي للولدين.

قبل أيامٍ قليلة من عيد الأضحى طلبت عفاف مني الذهاب إليها لرعاية طفليها، لأنها ستكون منشغلة بإعاة طلاء شقتها استعدادًا للعيد، وهكذا ظللت عندها أراعي الأطفال وهي منشغلة مع العمال، لكن تحديدًا يوم ٦ أكتوبر، وبينما كانت عفاف خارجة من المطبخ تحمل صينية الشاي للعمال المنشغلين بطلاء حوائط غرفة الصالون، وفي ذات الوقت كنت أنا باركة على الأرض ألاعب الولدين لعبة "جمل الملح"، وأسير بهما وهما على جانبي ظهري مستخدمة يديَّ وقدميَّ، وكأني جمل حقيقي من الجمال، وبينما أنا على هذا الوضع، إذ تعالت صرخة أختي وتخالطت مع صوت العمال الذين صاحوا: طخوه.

جريت بسرعة، بعد أن أنزلت الطفلين عن ظهري ووقفت، وخرجت من حجرة العيال حيث كنا نلعب، لأجد العمال يقولون وهم ينظرون باتجاه التليفزيون وقد أظلمت شاشته فجأة وكان مفتوحًا لتسلية العمال أثناء عملهم:

- طخوه وهو محروس من كل ناحية.. سبحان الله!

أما أختي فخرج صوتها المحبوس بصعوبة:

- ضربوه بالرصاص أثناء العرض العسكري حسب ما فهمت منهم، لأني كنت في المطبخ.. جرينا إلى البلكونة: أختي والعمال وأنا، حتى الولدان جاءا خلفنا، وقد أحسا بأن أمرًا غريبًا قد حدث، كان بعض الناس قد تجمعوا بالقرب من كشك السجائر عند زاوية الشارع، وهم يتحدثون بصوتٍ عالٍ، وتداخلت كلماتهم، لكني التقطت بعضها: يستاهل.. ربى الوحش لحد ما افترسه.. تلاقيها أمريكا.. تلاقيهم الجماعة إياها. يا دين النبي عليكِ يا مصر. عمرك ما تتهني وتعيشي في سلام. لا أدري، لماذا تذكرت عبارة والدي يوم وفاة عبدالناصر عندما قال: بكرة نشوف أيام أسود من قرن الخروب.

تنبهت من ذهولي على صوت أختي وهي تقول:

- خربت خلاص.

جاء العيد هادئًا بمظاهره العادية، صلاة العيد بتكبيراتها الجميلة قبل طلوع الشمس، والأطفال ببالونات ملونة وملابس جديدة، وبمب يطرقع هنا وهناك، وبدا الأمر وكأن الناس قد نسيت أن هناك رئيسًا قد تم اغتياله، بينما سجلت ذلك شاشات التليفزيون ووكالات الأنباء وكل وسائل الإعلام بالصوت والصورة.. لأن كل هؤلاء كانوا قد تجمعوا وقت العرض العسكري بمناسبة نصر أكتوبر ١٩٧٣ على إسرائيل وعودة سيناء.

حسام كان قد قرَّر ذبح خروف الأضحية، الذي جاء به قبل العيد بأسبوع، وتركه عند البواب يعتني بمأكله ومشربه حتى يأتي الجزار ويذبحه أول يوم العيد كما هي العادة والأصول، كان رأيي أن يأخذه للجزار ليقوم بذلك في دكانه، ولا داعي لسلخه أمام باب العمارة، لكنه رفض، وقال إنه سيأتي بلحم الخروف بعد سلخه وتقطيعه إلى البيت، لنضعه في أكياس ونوزع منه بمعرفتنا على بعض الفقراء والمحتاجين. اعترضت على ذلك، فلا طاقة لي بالشغل في لحم الخروف. أنا أكره لحم الضأن أصلًا، وأكره زفارته، وطوال حياتي ببيت أبي ما ذبخنا في يومٍ من الأيام أي خروف، سواء في العيد أو خلافه. أبي كان يشتري اللحم لنا في العيد ويتصدق بالفلوس على بعض الغلابة الذين نعرفهم.. وما رأيت أمي يومًا منشغلة بخروف، آخرة علاقتها بالحيوانات والطيور: أرنب.. دكر بط في عاشوراء.. ديك رومي عندما تمت خطوبة عفاف أختي وعزمت أم العريس وخالاته وعيالهم.

نشبت خناقة بيني وبين حسام، امتدت وطالت، قلَّب فيها القديم على الجديد، وأعلن فيها صراحة أنني لا أساوي نكلة بسوق الحريم.. لم أسكت، ذكَّرته بالشعارات والجمل الكبيرة عن المساواة وحرية المرأة، وضرورة خروجها من قمقم مفاهيم الماضي وقيمه البالية، ذكَّرته بكتب "نوال السعداوي" التي كان يحملها لي ويشجعني على قراءتها.. صرخت لأول مرة بعنفٍ في وجهه وأنا أقول: كله كان قشرة.. كله كان عندك قشرة من بره.. قشرة ضعيفة هشة، وعمر كل الكلام الكبير ما دخل جواك، في الحقيقة أنت متخلف وعندك فصام حقيقي في الشخصية.

سكت وهو يتأملني بدهشة، وكأنني كائن يراه لأول مرة، وبلا مقدمات أنهى الاشتباك بطلب بدا لي غريبًا جدًّا، بالأحرى شعرت لبعض لحظات أنه مجنون فعلًا:

- لازم تلبسي النقاب، وتتركي لبس الهدوم المسخرة، وتبطلي تنزلي وتطلعي بها كل يوم، ولازم تتركي الشغل.

قلت بإصرارٍ:

- مستحيل ألبس النقاب، ومهما عملت وطلعت أنت ونزلت، مستحيل أترك الشغل.

رمقني بغلٍّ، ثم قال:

- ناوي أرميكِ وأتركك كالبيت الوقف، يعني لا بيع ولا شراء.. لا طلاق ولا جواز.

ثم إنه فتح باب الشقة، ودفعني خارج البيت من حسن حظي وقتها - أي وقت الخناقة - أنني كنت أرتدي ملابس الخروج، استعدادًا للنزول إلى الشارع وشراء بعض مستلزمات للبيت قبل أن تغلق المحلات بمناسبة إجازة العيد، حمدت الله أنه لم يطردني بالليل.. كانت هناك واحدة زميلتي في المدرسة طردها زوجها بعد منتصف الليل بساعة وهي لابسة قميص نوم بحمالات، ولولا جارتها التي باتت عندها حتى طلوع الصبح، لكان حدث لها ما لا تُحمَد عقباه.

وهكذا كنت قد جئت من عمارة المنشاوي، وإليها أعود.

تدخلت أختي وزوجها، وبذلا محاولاتٍ صادقة بهدف عودة المياه إلى مجاريها بيني وبين حسام.. وافق على عودتي إلى البيت بشرط لبس النقاب وترك المدرسة، وعندما أخبراني بشروطه ضحكت قائلة:

- اتفاقية كامب ديفيد جديدة.

في الحقيقة، منذ اللحظة التي فتح حسام فيها باب البيت وأخرجني منه، قررت أنا أن أخرجه من حياتي إلى الأبد.. كنت أراهن قبل تلك اللحظة، ورغم كل الصراعات بيننا، على أن حسام القديم لم يمت بعد.. حسام الذي عرفته سنة ١٩٦٨ بوجهه المتألق، يوم مظاهرات الاحتجاج على الأحكام الواهية الصادرة ضد قادة الطيران المتسببين في هزيمة عام ١٩٦٧.. حسام الذي طالما أنشدنا معًا وبصوت واحد حينما كنا نسير ونتسكع بالقرب من شاطئ النيل، الكلمات العظيمة للشاعر الفرنسي "بول إيلوار":

خلقنا لنكون أحرارًا

خلقنا لنكون سعداء

خلقنا.. خلقنا..

حسام الذي ما أحببت يومًا رجلًا غيره قَطّ، ذلك الذي عبر كلماته وأفكاره أحببت نفسي واستعدت ثقتي بها رغم قامتي القصيرة، وبشرتي الشاحبة وصدري الممسوح. حسام القديم مات فعلًا، وأعلن بنفسه عن وفاته يوم أن فتح الباب ودفعني عنه بعيدًا.

السنوات التي تلت ذلك عرفت خلالها ساحات المحاكم لأول مرة في حياتي، وشاهدت العجب فيها، لم أكن المرأة الوحيدة المطرودة من بيتها في هذا العالم، فقد رأيت عشرات من الحالات المماثلة لحالتي، ورأيت نساءً يقتربن من حافة الشيخوخة وهن بلا مأوى، وأخريات يلهثن بحثًا عن ورقة إطلاق سراح تسمى "ورقة الطلاق".

حمدت الله على أنني لم أنجب من حسام أطفالًا، فلقد شاهدت بقاعات المحاكم نساء عديدات عيشتهن أسود من قرن الخروب، وكلها مرار وهمٍّ ونكدٍ بسبب نزاعات الأطفال ونفقتهم والتكفل بتربيتهم.

رأيت ورأيت كثيراتٍ من النساء المتعبات البائسات، لكن الغريب أن معظمهن كن محجبات أو حتى منقبات، بأجساد سمينةٍ مترهلة، وبجلاليب طويلة سوداء تُخفي كل معالم الجسد، وكأن الاسوداد إشارة إلى أن ذلك الجسد ميت وغير موجود، بياض الأحذية الكوتشي الرياضية، والذي يتناقض مع السواد، ومع الأجساد السمينة المترهلة، كان يشغلني دائمًا، ولطالما تساءلت: لماذا الإصرار على الأحذية الكوتشي البيضاء مع هذه الجلاليب الطويلة السوداء؟

ذات مرة، وبينما كنت أقف على الرصيف انتظارًا لأن تتلون إشاة المرور باللون الأخضر لأعبر الطريق، كانت تقف على الرصيف المقابل ثلاث سيدات مغلَّفات بالسواد من أعلى الرأس، وحتى الأقدام. فقط كانت تطل الأحذية الكوتشي البيضاء أسفل كل هذا السواد. للحظات ولا أدري على وجه اليقين ما جرى، وجدتني وكأنني أرى النساء وقد تحولن إلى فيلَة ضخمة سوداء بأحذية بيضاء، ارتعبت وأنا أتذكر حسام وطلبه بأن ألبس النقاب وأصير كهؤلاء الفيلة السوداء التي تنتعل الأحذية البيضاء.

بعدها وبينما أنا أعبر الطريق وأفكر بذلك، قفزت إلى رأسي صورة أمي وهي شابة، طنط "أتينا"، أختي، جاراتنا في عمارة المنشاوي، العاملات والبائعات بكل المحلات التي نذهب إليها، كانت الملابس دائمًا جميلة ومحتشمة رغم أنها قصيرة، والشعر مرتب ومقصوص سواء كان خشنًا أو ناعمًا طويلًا أو قصيرًا لدرجة "الألاجرسون". عبرت بحلقي مرارة، وتجمعت في عيني دموع،

فمعظم أولئك النساء كن ممتلئات، وسمينات أحيانًا، لكنهن كن جميلات وإحساسهن بأجسادهن حاضر دومًا. فكرت: المسألة ليست نحافة أو سمنة. المسألة الإحساس بالجسد. أجَّل الجمال مصدره الإحساس بالجسد وبالذات. فكرت: هل هاتيك النسوة الآن واللاتي أراهن فيلة بأحذية بيضاء يكرهن أجسادهن؟

اختلفت حياتي بعد العودة إلى بيت أبي مرة أخرى والاستقرار فيه.. عانيت من الحزن والاكتئاب لفترة، لم أكف خلالها عن التساؤل عما جرى لحسام من تحولات، وما حدثَ للبلد كلها. كنت أفكر طوال الوقت عن أسباب تدهور علاقتي به ووصولها إلى ما وصلت إليه، بينما كنت أظنها أجمل وأنبل علاقة يمكن أن تكون بين رجلٍ وامرأة. كنت لا أصدق أن ينقلب شخصٌ ما على كل ما برأسه من أفكار راقية ويتحول عنها إلى أفكار أخرى تضع الإنسان في دوائر الخوف والعدم.

كنت أبكي أحيانًا بينما أضع رأسي على الوسادة قبل النوم، إذ لم يكن حسام هو الوحيد الذي سار إلى الخلف، فحتى أختي عفاف، تلك التي كانت مفتونة بباترونات مجلة "حواء"، وضعت على رأسها وصدرها إسدالًا، وأصبحت ترتدي جلاليب طويلة مجرجرة تكنس بطرفها التراب في الشوارع المليئة بالأوساخ والقذارة، وتخلت عن فساتينها القديمة الجميلة المخنصرة عند الوسط، وذات القصات المكسمة المبرزة لجمال قوامها وتفاصيله. في النهاية، وبعد السبع دوخات في المحاكم، لم أحصل على الطلاق، لكن بعد صدور قانون الخلع أقمت دعوى للخلع، وصرت بالنهاية كائنًا حرًّا، ولا تربطني رابطة بذلك الميت منذ سنوات مرت والمدعو حسام.

استعدت نفسي واستأنفت حياتي بعد خوض معارك مقدور عليها مع أمي وأبي وأختي بخصوص دخولي وخروجي وتأخري قليلًا خلال مشاوير مسائية تحت شعار "الناس يقولوا علينا....".

قررت مواصلة دراستي في فن الرقص، والتحقت بالدراسات العليا بمعهدي، وبات طموحي في تكوين فرقة رقص يتزايد بشدة، وكنت ما زلت أحلم بتحقيق أحلامي القديمة التي تجمدت في فريزر الزواج لسنواتٍ طوال، بعد أن أذبت عنها ثلوج الأوهام والرهانات الخاسرة.

* * *

تمت

سلوی بکر